إدواردو غاليانو

كلمات متجولة

ترجمة: أسامة اسبر



إدواردو كاليانو

كلمات متجولة

ترجمة: أسامة اسبر

عنوان الكتاب: كلمات متجولة

اســـم المؤلف: إدواردو كاليانو

اسـم المترجم: أسـامة اسـبر

الطبعة الأولى ــ 2002

دار الطليعة الجديدة

سوريا ــ دمشق ــ ص.ب 34494

تلفاكس: 2311378

سماح بالطباعة صادر عن مديرية الرقابة في وزارة الاعلام

رقم: ٤٧٩٥٨ تاريخ: ٢٠٠٠/٤/٢٢

اخراج: هالـة فطوم

صمم الغلاف: جمال سعيد

قصة المعجزات السبع

من مصب نهر الأمـازون إلى خليـج أول سـينتس، لم يكـن هنـاك امـرأة بذلك التمنع ورجل بذلك السحر.

ولكي يربح قلب ماريا، اجترح خوسيه سبع معجزات.

قال والد ماريا: «ليس إلا جلداً وعظماً.»

وهكذا نشر خوسيه في الجو غطاء طاولة مزركشاً لم تصنعه يد، وأمر: «أيتها المائدة، أعدي نفسك.»

وقُدِّمَتْ، على الغطاء العائم، وليمة من أطباق يتصاعد منهـا البخـار لم يجلبها أحد متّعتْ جميع الأفواه.

ولكن ماريا لم تأكل سوى حبة أرز.

أعلن أغنى رجل في البلدة، مـالك الأرض والبشـر: «إنـه قطعـة بـراز لا تملك فلساً.»

وهكذا نادى خوسيه عنزته التي قفـزت مـن لا مكـان وأمرهـا: «تـبرّزي ذهباً.»

فتبرزت العنزة ذهباً وكان هناك ذهب لكل راحة يد.

لكن ماريا أدارت ظهرها لذلك التألق.

قال عشيق ماريا الذي كان صياداً: «لا يعرف أي شيء عن الصيد.»

فوقف خوسيه على حافة البحر ونفـخ، نفخ برئتين ليسـتا لـه وأمـر: «جَفِّفْ نفسك أيها البحر.»

تراجع البحر، تاركاً الأسماك الفضية تتلألأ على الرمال وملئت سلال الجميع حتى طفحت.
لكن ماريا لزمت الصمت.
قال زوج ماريا المتوفى، الذي هو شبح ناري: «سأحوله إلى فحم.»
هاجمت ألسنة اللهب خوسيه من جميع الجهات لكنه أمر بصوت لم يكن صوته: «أيتها النار، كوني برداً وسلاماً.» وهكذا اغتسل في اللهب إلى أن قفزت أعين الجميع من محاجرها. لكن ماريا أغمضت جفنيها.

أعلن قسيس البلدة: «ينبغي أن يكون في الجحيم.»
واتهم خوسيه بخطيئة السحر وبأنه أبرم اتفاقاً مع الشيطان.
وهكذا أمسك خوسيه القسيس من قفا عنقه وأمر: «أيتها الذراع، امتدي.»
التقطت ذراع خوسيه، التي لم تعد له، الكاهنَ ووضعته في أعماق الجحيم الملتهبة فسقطت فكوك الجميع من الذهول، لكن ماريا صرخت من الرعب. وفي رفة هدب أعادت تلك الذراع الضخمة القسيس المحروق.
قال الشرطي: «ينبغي أن يكون في السجن.»
وقفز على خوسيه والهراوة في يده، فأمر خوسيه: «أيتها العصا، اضربي.» فضربت العصا الشرطي الذي فر ليطارده سلاحه وغاب عن النظر. ضحك الجميع، كذلك ماريا. وقدمت ماريا لخوسيه أوراق كزبرة ووردة بيضاء.

أعلن القاضي: «ينبغي أن يُقْتَل.»
حكم على خوسيه بالإعدام بعد أن اتهم باحتقار حق الملكية وانتهاكه ــ ملكية الأب لابنته، والمتوفى لأرملته ــ وبإزعاج السلام، والهجوم على ضابط، والاعتداء على كاهن.
رفع الجلاد فأسه فوق عنق خوسيه الذي يتمدد مقيد اليدين والقدمين. وهكذا أمر خوسيه: «قاوم أيها العنق.»

سقطت الفأس، لكن عنقه حطمتها.

حان وقت الاحتفال، فاحتفل الجميع بإذلال القانون الإنساني وبهزيمة القوانين المقدسة.

ماريا، التي لا تزال مبللة بالدموع، قدمت لخوسيه قطعة من الجبن ووردة حمراء.

أما خوسيه، البطل العاري، الفاتح المهزوم، ارتجف وهو على ركبتيه.

نافذة على الكلمة ا

لا ينسج رواة القصص قصصهم أو يغنوها إلا حين تتساقط الثلوج. هكذا تُنْجَز القصص. وهنود أميركا الشمالية حريصون جداً على مسألة القصص. يقولون: حين تُروى القصص، لا تنتبه النباتات إلى نموها والطيور تنسى أن تطعم صغارها.

قصة المنتقمة الأنثى وكبير الملائكة في قصر المذنبين

عزيزي الكاتب:

ما يدفعني للكتابة إليك ليس الإعجاب وإنما الشفقة على إلهامك وخيالك المحدودين في نثرك، الذي هو ملائم بقدر ما هو مبتذل، لا يجد القراء أي شيء لم يقرأوه من قبل.

تقدم لك هذه الرسالة فرصة أن تكشف عن موهبتك المخبأة، هذا إن كان لديك شيء مخبأ في مكان ما. صدِّقني، لا تحتاج إلى أن تكون عبقرياً لكي تطبخ قصة جيدة من جميع العناصر التي سأمنحها لك. ربما ستتساءل: لماذا أنا وليس آخر؟ أولاً، منحني أحدهم عنوانك، وثانياً، جميع الكتاب الجيدين هم تحت المكان الذي لا يذهب إليه ساعي البريد على عمق ستة أقدام.

لنبدأ بالمشهد: عالياً على هضبة، في برج أبيض يصل ارتفاعه إلى النجوم، ينتصب ماخور كوماياغوا. كان نصف سكان المدينة يؤمون الماخور، وجميع سكانها يذهبون إلى القداس والمواكب. هكذا شقت كوماياغوا طريقها، بتثاؤب، عبر التاريخ.

إن كان هذا مفيداً، سأقدم وصفاً مختصراً قام به أحد المسافرين لموقف السيدات المحترمات: *بدأت الفضيحة هنا بعد الاستقلال حين اجتاحت المدينة الرقصات الحميمة الملتصقة. في أيام الأسبان، كان البشر يرقصون منفصلين دون أن يلمسوا بعضهم بعضاً، كرقصة النيوويت الفرنسية، والجوتا الأراغونية...*

كان السيد إدليو غالو يملك الماخور. وكانت الفتيات يعملن ليلاً ونهاراً دون لحظة استراحة. عصر السيد إدليو حياتهن إلى آخر قطرة. حين تجف عظامهن، يرمي بهن إلى الشارع. أتوسل إليك ألا تصرف كلمات كثيرة حول هذه النقطة، أيها الكاتب العزيز، بسبب ميلك المعروف إلى الوعظ. ولا تسمح لكالاميتي جين أن تظهر على خشبة المسرح فوراً. من المحتمل أن معاملتهن تركت فيهنّ شيئاً يُرغَبُ به، لكنّ الأمر لم يكن سيئاً مع فتيات السيد إدليو ـ إذا ما قورنّ مع بقية الضفادع التي تنق في قاع ذلك الجحر.

وصلت كالاميتي مرهقة فوق حصانها الشيطان. جاءت من الغرب البعيد، تطاردها أصداء طبول الأباتشي. عبرت جبال ثلاثة بلدان، ترشدها انعكاسات خاتمها الألماسي على جدران الوادي الصخرية. أحضرت كالاميتي الخاتم، الذي اختفى في الليلة الأولى. أحضرت كذلك شهرتها المكتسبة جيداً من امتلاكها لقلب أم، وإصبع زناد سعيد، ووهق لا يخطئ، وأوراق لعب معلّمة.

أدخلتها الفتيات دون علم السيد إدليو. نامت لمدة أسبوع. حين استيقظت، واجهته وقالت: «القبعة.»

بدلاً من أن يكشف رأسه، شهر السيد إدليو، الذي لم يكن محترماً، بندقية من نوع ستيتسون ورفعها إلى مستوى حاجبيه. أشهرت كالاميتي بندقية كولت ونسفته بطلقة واحدة.

وهي تواصل إطلاق النار، أبقت القبعة في الجو. حين، أخيراً، سقطت القبعة التي تحولت إلى منخل، على الأرض، أصدر السيد إدليو غالو أنيناً ونفخت كالاميتي دخان بندقيتها وقالت: «لهذا السبب لم أبق في مدينة رابيد. إنهم يقتلون كثيراً في ذلك الجحر الخرائي.»

هل يبدو ذكر اسمي ستيتسون وكولت سطحياً؟ أنا لست مندهشاً. لكن الكاتب المحترف ينبغي أن يعرف أنه في السرد القابل للتصديق، تكون

أصغر التفاصيل أكثر أهمية. وعلى أي حال، أقترح عليك أن تضع في ذهنك أن كالاميتي استخدمت بندقية سبرنغفيلد، وليس وينشستر كما يزعم بعض البلهاء.

لنتابع. لعبا البوكر. ارتفعت الرهانات بينما كانت زجاجات الرم الجامايكية تتناقص، إلى أن خسر السيد إدليو الماخور وكل ما يملكه. لم يرف جفن لذلك الرجل المتغطرس الذي لا يعرف الشفقة. قبل دماره بتلك الجبرية المعهودة لدى آل غالو، المنحدرين من أولئك الحراس الذين، حين تحدث الزلازل، يجلسون وينتظرون لكي يسقط المنزل عليهم. منحته كالاميتي رسالة تزكية لسيرك بوفالو بيل. غادر السيد إدليو إلى باريس مفلساً. هناك، وضع ريشاً ولبس كزعيم ذي جلد أحمر، أخذ وضعيات من أجل الصور، ومات من ذات الرئة.

الماخور، الذي كان بارداً كمشفى ومنيعاً كثكنة، امتلأ بالطيور والغيتارات، بالنباتات والألوان. ومن الغروب إلى الفجر كانت الفتيات يفتحن سيقانهن. ولكن في أثناء النهار، وإلى أن تُقْرع الأجراس الأولى لأنجيلوس، كن يفتحن آذانهن. قدمت لهن التجربة الفكرة. كن يعرفن أنه وراء كل ذكر بخصيتين يختبئ بحار تحطمت سفينته ويتوسل من أجل ملاذ. كان مكانهن الخاص بالاعتراف ناجحاً بحيث أنه غص بحشود من مدينة الأعداء تيغوثيغالبا ومن جميع الأمكنة الأخرى. على جوانب الهضبة، كانت صفوف طويلة من الرجال تنتظر دورها لكي تسكب الشكوك والأسرار والمخاوف المخبأة، الأحلام والكوابيس. لم تستطع الكنيسة أن تتنافس مع المكان. والكهنة، كما تعرف، لا يسمعون إلا اعترافات الذنوب، التي هي أقل شيء يرغب البشر بالاعتراف به.

في غضون ذلك، انشغلت كالاميتي بترتيب أوراقها مع السيد حكومة. هذه المرأة التي كانت ترتدي دائماً بنطلوناً، ارتدت تنورة ووضعت حربة كولينز في ربطة جرابها ونقوداً تحت قميصها الداخلي.

حين قدمت كالاميتي جين حفنة من النقود الحارّة للسيد حكومة قال لها: «ضعيها في ظرف.» وبمرسوم، أعفي الماخور، الذي هو تعاونية بدون ربح، من جميع الضرائب ومنعت جميع المواخير الجديدة على كامل التربة الوطنية.

في عام الرخاء المجنون ذاك، وصل كبير الملائكة. ووفقاً للتقليد، كان قصر الخطاة يقفل أبوابه كل يوم جمعة في أثناء الصوم الكبير. ووفقاً للتقليد، بعد أن سافر يسوع الناصرة في شارع الجمجمة على أكتاف النساء الورعات، وتلاشت الأصداء الأخيرة للهوى وصلوات Via Grucis، ظهر خيّال بلا رأس يعدو بالسرعة الكاملة خارجاً من فم الليل. رفس الحصان أبواب الماخور، شب شبات مرعبة، على عجل، تطارده زوابع ونفخات من الكبريت. ثم، وفقاً للتقليد، ستتوب إحدى أفراد القطيع الجانح، وتهجر، متألمة، طرقها الشبقية لتبدأ حياة شريفة.

في يوم الجمعة ذاك، انطلق الخيّال الذي بلا رأس، أعمى من الغضب مثل كل عام، لكن الأبواب، هذه المرة، فتحت على مصاريعها. دخل الحصان الأسود الماخور واختفى في الداخل، تدحرج الخيّال على الأرض، اصطدم بمصباح تيفاني، وتحطم على حائط. استيقظ بين ذراعي امرأة. احتج قائلاً:

«أصغي يا سيدة.»

صححت له كالاميتي جين: «آنسة.»

كان الخيال، كبير الملائكة، قزماً كبيراً بأنف أحمر وصوت طفل، ألبسه الله ثياباً ليبدو كشيطان بلا رأس ويخيف النساء الفاسقات.

كان هناك برق ومطر طول الليل واستيقظ العالم أكثر إشراقاً مما كان عليه. أدهش الصباح كبير الملائكة الجالس في حوض استحمام نصفي، في بركة من حليب بابايا الأخضر. آلم المسكين مؤخرته حين انقطع الحبل

الذي أنزله من السماء. إلى جانبه، كانت كالاميتي، فاغرة الفم، ولقد تركته يفعل ما يسره. بالعسل والقرفة، نظف كبير الملائكة فمها المتسخ من اللعنات الوقحة.

من فضلك، أتوسل إليك، لا تزعجني وتسألني إن كان هذا قد حدث حقاً. أنا أقدمه لك بحيث تجعله يحدث. أنا لا أطلب منك أن تصف سقوط المطر ليلة وصول كبير الملائكة: أنا أطلب أن تجعلني أتبلل. فكر بالأمر، أيها الكاتب، ومرة واحدة في حياتك كن الزهرة التي تفوح بدلاً من أن تكون مؤرخ العطر. ليس هناك متعة كبيرة في كتابة ما تعيشه. التحدي هو أن تعيش ما تكتبه. وفي مثل سنك يجب أن تكون قد تعلمت.

سأتابع: وكما تعرف من الأيقونات المتوفرة، ليس لكبار الملائكة أعضاء ذكرية لكن لهم معدة. إذا كان آدم قد سقط من أجل تفاحة قديمة واضحة، كيف لن يستسلم كبير الملائكة؟ ذلك أن الماخور قدم له متع بستانه: النوى الذهبي للمانغو، الرائحة المدوخة لثمرة الحب، عذوبة الأناناس، نعومة الغوانابانا والأفوكاتة.

وكما يعرف الجميع، لكبار الملائكة أرواح، والروح تحتاج إلى أن تعترف، حتى ولو لم ترتكب خطيئة. شكت كالاميتي من الغرب المتوحش وشكا كبير الملائكة من السماء. كانت الشكولاتة تجمع بينهما في النهار، والرم في الليل. قالت لو أنها ملكت ويومنغ والجحيم، سوف تؤجر ويومنغ Wyoming وتعيش في الجحيم. وقال أنه بعد أن أمضى الأبدية كلها في خدمة الله في الفردوس وذلك من خلال قيامه بأصعب المهام، شكره الجاحد بإرساله إلى الأرض لكي يشفي السكارى والعاهرات. روت له أسراراً وقحة عن الجنرال كستر والشريف وايلد بل هيكوك، وانتقد بعنف مستشاري الأكثر قداسة. وفيما هما يتحدثان، اكتشفا أنهما أمضيا حياتهما كلها وحيدين ولم يدركا ذلك.

في بعد ظهر بعض الأيام أخذت كالاميتي جين كبير الملائكة في نزهة في شوارع كوماياغوا في عربة للأطفال. سارا بغرور دون أن يكترثا بالاستياء والحسد. طاردتهما الألسنة الشريرة لمعارضي الإمبريالية، والملحدين، والمدافعين عن الفضيلة والسلوك الحسن. وكان دائماً هناك شكاكون يلطمون بعضهم بالأكواع ويسألون منقطعي النفس: لماذا لا تفهم كالاميتي كلمة واحدة من الإنكليزية؟ أي نوع من كبار الملائكة لا يملك جناحين أو سيفاً نارياً ولا يعرف كلمة من اللاتينية؟ كيف يتحدث الاثنان بلهجات المنطقة؟

لا أعرف إن حدث هذا. أعرف أن هذا يستحق أن يحدث فحسب.

ما تبقى هو أقل أهمية. غطى الزمن جميع المسارات. بوسعك أن تتخيل أن كبير الملائكة قضى وقتاً ممتعاً، وأن الحياة هي متعة أكثر مما هي خلاص. ولكن بوسعك أن تفترض كذلك أن كالاميتي تعبت من كل شيء. بوسعك أن تفترض أنها لن تجد مكاناً تختبئ فيه في قصر جدرانه مغطاة بالمرايا، وأنهى عمرها. تخيل الماخور في أوج مجده، والأوركسترا الوطنية تعزف إلى الفجر، وفي إحدى الليالي ترقص كالاميتي رقصة البطن، عارية تحت ثوب مبذل فضفاض، والجمهور يصفق بجلبة وضحك وهي تقاوم الدموع. وفي اليوم التالي تغادر. يركع حصانها سيتان ليساعدها على امتطائه. لا تتجه شمالاً، لتعود إلى أصولها، بل تتابع رحلتها جنوباً نحو مصيرها. لا بد أن أحداً ما سمع صوت الحوافر والصفير. كانت تصفر، لتستمتع برفقة نفسها؟ لتستنهض شجاعتها؟ بوسعك أن تختار.

وكبير الملائكة؟ هل أخذته كالاميتي معها؟ هل عاد إلى السماء؟ هل حاول؟ هل أصبح إنساناً في النهاية، إدليو غالو جديداً؟ لا تزعج نفسك بالسؤال. لا أحد يستطيع الإجابة، لا في كوماياغوا ولا في أي مكان على الكوكب. آسف أيها الكاتب، homo scribere، ليس أمامك خيار سوى أن تفعل ذلك.

المخلص لك

الاسم لا يقرأ.

نافذة على الكلمة ٢

في هاييتي، لا يمكن أن تروى الحكايات في النهار. وكل من يروي قصة قبل حلول الظلام يلحق به العار: يرمي الجبل حجراً على رأسه، وتسير أمه على أربع.

الليل يستخرج كل ما هو مقدس، وأولئك الذين يعرفون كيف يروون قصة يعرفون أن الاسم هو المسمى.

نافذة على الكلمة ٣

في لغة الغواراني الكلمة تعني: الكلمة والروح. ويقول هنود الغواراني إن كل من يكذب أو يبدّد الكلمات يخون الروح.

قصة الضب الذي
يلتهم زوجاته على العشاء

على حافة النهر، كانت امرأة تقرأ وهي مختبئة بين الأعشاب.

يقول الكتاب إنه في إحدى المرات، عاش مالك ملك واسع. كان يملك كل شيء: بلدة لوكاناماركا وكل ما حولها، الوحوش البرية والموشومة، البشر البدائيين والمروضين، كل شيء: المرتفع والمنخفض، الجاف والرطب، كل ما يقدر أن يتذكر وكل ما يقدر أن ينسى.

لكن لم يكن للمالك وريث. وكل يوم تؤدي زوجته ألف صلاة وتشعل كل ليلة ألف شمعة متوسلة إلى الله أن يرزقها بابن.

تضايق الله من التوسلات المتعجرفة لامرأة تطلب شيئاً ما لا يريد أن يمنحه. في النهاية، إما بسبب الشفقة أو للتخلص منها، اجترح معجزة وهبطت المتعة على أهل البيت.

كان للطفل وجه إنسان وجسد ضب.

مع مرور الزمن تعلم الحديث، لكنه كان ينزلق على بطنه. علمه أفضل معلمين من أياكوتشو أن يقرأ لكن مخالبه لم تستطع أن تكتب.

حين بلغ الثامنة عشرة طلب زوجة.

عثر له والده الثري على واحدة وحصل الزفاف الكبير في منزل الكاهن.

في الليلة الأولى رمى الضب نفسه على زوجته والتهمها. حين ظهرت الشمس في الأفق، كان في سرير الزوجية وحيداً ومحاطاً بالعظام.

فيما بعد، طلب الضب زوجة أخرى. حصل زفاف آخر وافتراس آخـر. ثم احتاج الجشع إلى أخرى. واستمر الأمر هكذا.

لم يكن هناك نقص في الخطيبـات. ففـي منـازل الفقـراء، كـانت هنـاك دائماً فتاة زائدة.

وفيما كانت مياه النهر تدغدغ بطنه، كان دولثيديو يأخذ قيلولته.

فتح عيناً وكانت هناك. كانت تقرأ. لم ير في حياته امرأة ترتدي نظارة.

رفع دولثيديو خرطومه الطويل: «ماذا تقرأين؟»

خفضت الكتاب، نظرت إليه بهدوء، وقالت: «أساطير.»

«أساطير؟»

«أصوات قديمة.»

«لماذا؟»

هزت كتفيها: «من أجل الرفقة.»

لم تبد هذه المرأة على أنها من الجبال أو الغابة أو الساحل.

قال دولثيديو: «لا أعرف أن أقرأ.»

أغلقت كتابها واستدارت بعيداً.

حين سألها دولثيديو من هي ومن أين جاءت، اختفت المرأة.

في الأحد التالي، حين استيقظ دولثيديـو مـن قيلولتـه كـانت هنـاك بـلا كتاب ولكنها ترتدي نظارة. تجلس على الرمـال وقدماهـا مختبئتـان تحـت تنـورات كثـيرة ملونـة، كـانت فعـلاً هنـاك، هنـاك إلى الأبـد. نظـرت إلى المتطفل الذي يسترخي في ضوء الشمس.

وضع دولثيديو الأمور في نصابها. رفع مخلباً صلباً ولوّح به نحو الجبـال الزرقاء في الأفق: «بقدر ما ترين، وبقـدر مـا تسـتطيعين السـير، كـل هـذا ملكي.»

لم تنظـر حتـى إلى المملكـة الشاسـعة، وبقيـت صامتـة. صمـت في غايـة الصمت.

ألح الوريث. الحملان والهنود تحت قيادته. إنه مالك كل ذلك المتسع من الأرض والماء والهواء، وأيضاً بقعة الرمل التي تجلس عليها: «معك أذن مني،» أكد لها.

قذفت خصلة شعرها السوداء الطويلة إلى الخلف، كمن يسمع صوت المطر، وكان الضب نفسه يشير إلى أنه غني لكنه متواضع، مجد وكادح، وقبل كل شيء، سيد يريد أن تكون له أسرة ولكن القدر القاسي يريد أن يبقيه أرمل.

انحنى رأسها، وفكرت بذلك اللغز.

حوم دولثيديو وهمس: «هل أطلب منك معروفاً؟»

وصارع كي يصل إليها ثم أدار ظهره.

توسل: «حكي ظهري، لا أقدر أن أطاله.»

مدت يدها، داعبت الحراشف، وقالت: «إنها كالحرير.»

ارتجف دولثيديو، أغمض عينيه، فتح فمه، صلّب ذيله، وشعر بأمور لم يشعر بها من قبل.

ولكن حين نظر حوله كانت قد اختفت.

اندفع بسرعة عبر الأعشاب بحثاً عنها، غدواً ورواحاً، في جميع الجهات. ولم ير لها أثراً.

في الأحد التالي، لم تأت إلى ضفة النهر، ولا في الأحد الذي تلاه، أو الذي بعده.

منذ أن شاهدها، لم يشاهد شيئاً آخر.

لم يعد الرأس النائم ينام، ولم يعد الجشع يأكل. لم تعد غرفة نوم دولثيديو الملاذ السعيد حيث كان يستريح تحت النظرة المراقبة لزوجاته الميتات. كانت صورهن لا تزال تغطي الجدران من الأعلى إلى الأسفل، وإطاراتها التي على شكل قلب محاطة ببراعم البرتقال. دولثيديو، الذي حكم عليه بالعزلة، يرقد مدفوناً تحت الأغطية، يغطيه الأسى. جاء الأطباء

والمعالجون من جميع الأمكنة، لكن لم يستطع أحد أن يوقف ارتفاع الحمى في جسمه وانهيار كل شيء آخر فيه.

وهو متمسك بالمذياع الذي اشتراه من تركي عابر، كان دولثيديـو يعـاني طول الليل والنهار، ويتنهد، ويصغي إلى الألحان التي لم يعد يصغي إليهـا أحد. كان والداه، اليائسـان، يراقبانـه وهـو يهـزل. لم يعـد يطلـب زوجـة معلناً: «أنا جائع.» إنه يئن الآن: «أنا شحاذ حـب.» وبصوتـه الواهـن ذي الميل المرعب إلى القافية، أطلق مديحـاً مؤلمـاً للسيدة الـتي سـرقت أعصابـه وحيويته.

انطلق جميع الخدم للبحـث عنهـا. فتشـوا الأرض والسـماء، لكنهـم لم يعرفوا حتى اسم تلك التي تبخرت، ولم ير أحد مطلقاً امرأة ترتـدي نظـارة في هذه الأودية أو خلفها.

في أصيل أحد أيام الأحد، انتاب دولثيديو هاجس. نجـح في النهـوض، وجر نفسه بصعوبة إلى ضفة النهر.

وهناك كانت.

مستحماً بالدموع، بـاح دولثيديـو بحبـه لهـذه الفتـاة الناضجـة النـاكرة والمخادعة. اعترف: «مت من الظمأ لحبك كما أتوق للخمرة، سـأنفجر مـن البكاء، آه أيتها الحمامة المقدسة»، وأمطرها بكلمات عذبة.

حان يوم الزفاف. وسر الجميع لأنه مضـى وقـت طويـل منـذ الاحتفـال الأول، والوحيد الذي يتزوج هنا هو دولثيديـو. إنـه زبـون جيـد، والكـاهن يمنحه حسماً.

تغمـر موسـيقى الشـارانغو الحبيبـات، وتغـنـي القيثـارة والكمنجـات لمجدهن. يشرب الجميع نخب الحب الأبـدي لـلزوجين، ويتدفـق شـراب البنش تحت أكاليل الزهر.

ارتـدى دولثيديـو جلـداً جديـداً، يميـل إلى الاحمـرار عنـد ظهـره وإلى السماوي المائل إلى الاخضرار في ذيله العجيب.

أخيراً حين أصبحا لوحدهما، وحانت ساعة الحقيقة، أعلن: «سأمنحك قلبي إلى أن يفرقنا الموت.»

أطفأت الشمعة بنفخة واحدة، خلعت ثوب الزفاف، الناعم والسميك من الزركشة، خلعت نظارتها ببطء، وقالت: «لا تكن غبياً. تخلص من الهراء.»

وبشدة واحدة أخرجته من غمده كأنه سيف. رمت جلده على الأرض وعانقت جسده العاري، وضعته على النار.

فيما بعد، نام دولثيديو بعمق، متكوراً حول امرأته، وللمرة الأولى في حياته حلم.

أكلته وهو يحلم. ابتلعته قطعة قطعة، من رأسه إلى ذيله، دون أن تصدر ضجة أو تمضغ بقوة، حريصة ألا توقظه لكي لا يأخذ انطباعاً سيئاً.

نافذة على الزمن

في كاخاماركا، كانون الثاني هو وقت النسج.

في شباط تظهر الأزهار الجميلة والحدائق الملونة. تغـني الأنهـار ويكـون وقت الكرنفال.

في آذار تنجب الأبقار وتنمو البطاطا.

في نيسان تنمو قرون الذرة في صمت.

في أيار تحصد المواسم.

في أيام حزيران الجافة، تُجهَّز الأرض الجديدة.

في تموز تقام حفلات زفـاف ومهرجانـات، وتظهـر أشـواك الشـيطان في الأثلام.

آب، السماء حمراء، وقت الرياح والأوبئة.

القمر الناضج، وليس القمر الأخضر، هو من أجل الزراعة في أيلول.

يتوسل تشرين الأول لله لكي ينزل الغيث.

في تشرين الثاني يحكم الأموات.

في كانون الأول تحتفل الحياة.

نافذة على البشائر

تفقد أوراق الذرة قوتها،

فجأة تتفتّح أزهار العليّق،

تغرّد طيور الدج دون توقف،

الدجاج يتزاوج وهو يقرق،

الضفادع تقفز إلى أعلى الهضبة وليس إلى أسفلها،

الخنانيص ترقص،

تختبئ الحلازين،

تظهر الثعابين،

يظهر البوم،

طيور الخطاف تطير في دوائر محكمة،

العقبان تحلّق في صف،

الإوز يطير من البحر،

ويرتدي جبل بيلاغاتوس وجبل تانتاريكا قبعات من الغيم.

هذه هي إشارات الفصل الماطر في كاماخاركا، وفقاً لأولئك الذين يعرفون لماذا متى.

قصة اللقاء المهلك في الصحراء
بين قاطع الطريق والشاعر النادم

كان هو الذي بقي على قيد الحياة.

فيرمينو، المعلم القديم في فن قطع الطرق، كان يهرب نحو الريف قرب برنامبكو. في كمين على حافة جرف، قضت طلقات الجيش على امرأته وأصدقائه. لقد بُتر من الداخل، وبقاياه كانت تتجول حزينة في العزلة.

في تلك الليلة سقط مطر غزير في الصحراء، الأمر الذي لم يحدث مطلقاً. كشف ضوء البرق عدة هياكل عظمية ترتدي البزات العسكرية والقبعات، ترفس في الجو. جاء ضحايا أعوام كثيرة من الهجوم ليحصّلوا من فيرمينو الوقت الذي يدين به لهم لأنه غالباً ما كان يعتدي عليهم. وكان أنينهم الشبحي يصرخ طالباً الانتقام.

ملوحاً مديته، ومؤرجحاً عقب بندقيته، حارب فيرمينو جيش العظام الذي نهض مع العاصفة.

أخيراً توقف المطر، فجأة، كما بدأ. وفي لحظة، تبخرت الرطوبة كلها وعاد الموتى إلى النوم تحت الأرض اليابسة.

فيرمينو، أعظم وغد في المملكة، استطاع أن يواصل قتاله.

بعد مسير طويل، قطع بعض الأغصان ليشعل ناراً فنزفت الأدغال.

فهم فيرمينو، لكنه تابع طريقه.

غنى سابينو الشاعر: الضائع سيكون المكتشف، وستنجب الأرض نجوماً تذل السماء. سيكون البكم مذيعين في محطات البث وسيكون لدينا مستشفيات دون مرضى، كما لدينا اليوم مرضى بلا مستشفيات.

سابينو، قارئ الأشعار في أسواق بعيدة عن الساحل، غنى نبوءات البقرة الحمراء. البقرة، التي طارت في أحلامه، أخبرته أن الصحراء ستكون بحراً والحقول الصخرية ستنفجر بالاخضرار، وأولئك الذين يعرفون شاهدوا ولادة دون موت وأسابيع مليئة بأيام الأحد.

هذا ما غناه إلى أن أنهك. مرض الشاعر سابينو من قراءة الشعر والانتظار. وندم لأنه أمضى حياته في حج بين الفقراء والملعونين في جحيم من الأحجار. اكتشف أن الأمور هي ما هي عليه لأنها كانت دوماً، وستكون دائماً كما أرادها الله أن تكون. وتخلى عن لياليه مع البقرة المجنونة التي حلمت له بالقمامة. واختار العمل مع الحكومة. لم يعد يرفع سيفه الخشبي لكي يطرد أفعوان الحزن، وإنما لكي يعاقب أعداء النظام.

تابع فرمينو سيره نحو ريف برنامبكو أو إلى أي مكان تستطيع أن تحمله إليه قدماه.

في صباح ما، في مكان ليس بعيداً عن إحدى القرى، أيقظه صوت خطوات فقفز مشهراً مديته. ولكنه حين شاهد سابينو، الفروج المسلوق ببزة وربطة عنق، يقف وسط الدغل، بدأ قاطع الطريق ينتزع التبغ بهدوء. قدم الشاعر نفسه: سابينو، الشاعر المتواضع، بخدمتك، قال إنه حلم دائماً بلقاء سوط الصحراء الوحشي، سيد الشر، واليوم قدم له القدر هذه المفاجأة التي لا يستحقها، بالتأكيد، والتي تعني، بالنسبة إليه، أكثر من...

لف فرمينو سيجارة وأشعلها. همس سابينو وهو يبلع ريقه بصعوبة: «شرف كبير.»

كان بعض الذباب هو الجمهور الوحيد. نفث قاطع الطرق حلقات الدخان إلى السماء، وقاس دودة الكتب التي تفأفئ قبل أن يطلق عليه النار.

سابينو، الذي خفض وجهه، أحصى النمل، لكنه شهر سيفه فجأة.

ارتجف السيف الخشبي في يده. وارتعش صوته أكثر من السابق وهو يقول: «سأطلب منك معروفاً صغيراً.»

مسح جبينه وعينيه بمنديل، وتشدق متوسلاً: «اسمح لي... أن أقطع رأسك.»

قهقه فرمينو بصوت مرتفع، خرج ضحك متواصل إلى أن استخدم كل الضحك المخزون في داخله منذ المرة الأخيرة التي ضحك فيها كثيراً. سعل.

ثم مد عنقه: «افعل ذلك يا دكتور.»

رفع الشاعر سابينو السيف الخشبي بكلتا يديه وسدد ضربة قوية. وقف قاطع الطريق فرمينو ودلك عنقه. رفت عين الشاعر. صدر عنه أنين كأنين الأرنب وأخيراً كان قادراً أن يتوسل: «قل لا.»

منحه قاطع الطريق الفضل. لماذا لا؟ لا ترفض منح ذلك لأي شخص. وهكذا قال زارع الرعب في الشمال الشرقي: «لا.»

لكن الشاعر بربر: «قل كلا... برأسك.»

ثم، حين هز قاطع الطريق رأسه، انفك وتدحرج على الأرض.

تحول انتصار الحضارة على البربرية إلى عناوين على الصفحات الأولى للصحف المحلية، والإقليمية، والقومية، والقارية، والعالمية. وفي احتفال عام نقلته هيئة الإذاعة البريطانية تلقى سابينو المكافأة وتبرع بها لأعمال البر. والكتاب الذي روى عمله الفذ تُرْجِم إلى الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، والإسبرانتو، واختارت التايم سابينو رجلاً للعام.

ذهبت روح فرمينو مباشرة إلى الفردوس.

على الأرض شقت جثته إلى نصفين. رمي الجسد للعقبان والرأس للعلماء. وقبل أن يهبط رأسه المحنط في علبة في متحف قطاع الطرق، برهن العلماء أن سابينو كان ينتمي إلى الثدييات العليا من

المجموعة البرازيلية Xanthodermic. كشف تحليلهم شخصية مختلة والدليل على ذلك انتفاخات في الجمجمة يتميز بها القتلة في جبال بلدان غامضة. وكان صفة الإجرام واضحة كذلك من الأذن التي هي أصغر بعشرة مليمترات من أذنه الأخرى، ومن الرأس المستدق والفكين الكبيري الحجم بأنياب عين كبيرة (ناب في الفك الأعلى) تابعت مضغها حتى بعد موته.

ذهب فرمينو إلى الفردوس لأن امرأته كانت فيه، ولأن أحداً ما أخبره أنه سيتوفر مكان هناك للفرسان المتجولين المتمرسين بفن القتال النبيل.

كان فارساً دون فرس. ذهب إلى الفردوس سيراً على الأقدام، على طول الطريق إلى الأعلى نحو المجد، مستخدماً بندقيته كعكاز وثمة خنجر فضي في حزامه. سار فرمينو بخطوات مدروسة، مسلحاً، ومستحماً بالعطر، اللمعين يومض على شعره، الخواتم تبرق في جميع أصابعه، وكان يرتدي صليباً ضخماً من الرصاصات المتوهجة ويعتمر قبعة نابليونية مثقلة بالأوسمة والجنيهات الإسترلينية وحلي أخرى. بعد صعود طويل، وصل إلى بوابات الفردوس. لكن القديس بطرس لم يسمح له بالدخول.

والله نفسه أصدر أمراً بمنع دخوله. لم يستطع الكائن الأعلى أن يغلق أذنيه أمام الصخب الجماعي للملائكة، كبار الملائكة والقديسين. امرأة فرمينو، التي دخلت إلى الفردوس بسبب خطأ، تنام معهم جميعاً. إنها الوحيدة المشتعلة بالنار في الأبدية. حين تمارس الجنس وترقص، تنطلق الشرارات من بطنها وينتهي الضجر الخالد للمكان الإلهي.

وهكذا لم يسمح له القديس بطرس بالدخول، وفرمينو لم يتوسل، أو يتفوه بكلمة. وقف منتظراً بصمت.

مر وقت طويل وفرمينو لا يزال هناك، ينتظر حاملاً قبعته بيده، ويقف ثابتاً على بوابات الفردوس.

من مرصده في الأعماق، كان لوسيفر يتأمل الموقف مذعورا. لوسيفر، رأى الأمر يحدث فقال:

«دائماً أتلقى الأسوأ.»

نافذة على الكائنات والأعمال

ناعم جلد المرأة التي تكوي.

طويل ونحيل، الرجل الذي يصلح المظلات.

منتوفة هي المرأة التي تبيع الدجاج.

في عيني المفتش تشع الشياطين.

تكمن القطع النقدية وراء جفني المرابي.

شعرات لحية الساعاتي تحدد الزمن.

يملك البواب مفاتيح للأصابع.

حارس السجن يبدو كالسجين والطبيب النفسي كالمجنون.

الصياد يصبح الحيوان الذي يطارده.

الزمن يحول العاشقين إلى توأمين.

الكلب ينزه الرجل الذي ينزهه.

تعذّبُ الضحية حلمَ الجلاد.

يهرب الشاعر من الاستعارة في المرآة.

قصة الحواري القديس
بطرس في أميركا

ينتظر فرمينو، متكئاً على بندقيته، بينما يرتفع الفضلاء إلى السماء دون أن يلقوا التحية.

قال الرجل الميت: «ليست هذه حياة.»

لن يمضي فرمينو الأبدية كلها دون أن يكون هناك أحد يتحدث معه. ذلك أن محارب الصحراء القديم يستحق شيئاً أفضل من ثغرة الذل الصقيعية هذه. للجحيم سمعة سيئة، ويقولون إنها اسم آخر للأرض، لكن هناك في الأسفل ينفتح الباب وهو دافئ كما في المنزل.

قرر قاطع الطريق. كان على وشك أن يقوم بالقفزة التي لا عودة منها في المقلاة الشاسعة حيث يئز المذنبون، حين حدثت معجزة.

المعجزة: فتحت القضبان البيضاء شقاً ونتأت إلى الخارج لحية بيضاء، ثم رأس أصلع. خطا القديس بطرس خارج الجنة. كان الحواري يبحث عن بقعة جيدة لكي يرى العالم منها، لأنه لا يستطيع أن يراه من الداخل.

سار حارس بوابة الله بضع خطوات في الجو، جلس، وبدأ ينفخ الغيوم. كانت تتدلى سلسلة مفاتيح كبيرة من حزامه.

انزلق فرمينو خلفه وبأصابع حريرية أمسك المفاتيح، فتح البوابة، وتسلل إلى مملكة العادلين. دخل، وقذف المفاتيح من فوق كتفه.

القديس بطرس، الذي ينظر إلى العالم، لم يلاحظ الأمر.

كان أمير الحواريين يتأمل جسد الأرض المتوهـج وهـو يبحـر في الفـراغ. كان ينظر ويتنهد.

إنه يصغي لصوت يناديه مـن بعيـد ولكنـه يعـرف جيـداً أنـه مـن غـير المسموح له أن يعود إلى الأرض. ذلك أن الله لن يسمح له بذلك. ولن يسـمح الله حتى لبقية الصيادين من الجليل بـالعودة، وحتـى لابنـه يسـوع. حـين كانوا على الأرض، ضُربوا وطُـردوا، عُلّقـوا علـى الصلبـان، طُعنـوا بالرمـاح وتُركوا ينزفون. مر ألفا عام، لكن الله لا ينسى.

تسافر نظرة القديس بطـرس عـبر البحـار والصحـاري والجبـال، إلى أن تستقر في النهايـة علـى واد صغـير بـين قمـم جبـال جزائـر الهنـد الغربيـة المرتفعة. تخترق نظرته الليل في بلدة تشيمباوايا.

في ضوء شمعة كنيسة تشيمباوايا، ترتجف الظلال.

عالياً على المذبح، كان بينيتو، الكاهن، ينتظـر غلوريـا، الراهبـة الـتي كانت في طريقها.

يرتدي الكاهن بينيتـو رداء مسـروقاً، وعلـى رأسـه تتوهـج هالـة ذهبيـة ليست له.

محمراً من الغضب أو الحسد، يلعن القديس بطرس ما يراه.

غابت غلوريا الراهبة عـن البلـدة فـترة طويلـة. أمـا الكـاهن بينيتـو فلـم يغادرها. لقد أمضى حياته كلها هنا: في حجرة تلقـي الاعـتراف، يسـتمتع بذنوب الآخرين، ومن على المنبر، يهـدد الهنـود بعواصـف البَرَد والقحـط وبأشكال أخرى من الانتقام الإلهي.

حين جاءت غلوريا الراهبة، كان متاعها الوحيد هو خاتم أمها الذي في إصبعها.

على سرير الموت، وضعت أمها الخاتم في راحة كف زوجهـا. وبنَفَسـها الأخير، تفوهت بطلبها الأخير. أقسم والد غلوريـا بـأن لا ينـام مطلقاً مـع أخرى لا يدخل هذا الخاتم في إصبعها.

بعد بضعة أيام، وبسبب الفضول أو اللهـو، ارتـدت غلوريـا الخـاتم ولم تستطع أن تخرجه مطلقاً.

هربت غلوريا من منزلها ومصيرها وأصبحت راهبة.

حالما لبست رداء الراهبة عُيِّنَتْ في بلدة تشيمباوايا.

جاءت من الجبال سيراً على الأقدام. وصلت فجراً، بعـد رحلـة طويلـة جداً، ولم يكن هناك غبار على صدارتها أو إعياء في محياها.

قرعت زوجة المسيح الجديدة بخفة،وكان هذا كافياً لجعل بينيتـو يقفـز من سريره.

فتح الباب ورآهـا: غلوريـا، بعينيهـا الخـائفتين ورائحـة مطـر حديـث السقوط.

منذ ذلك اليوم فصاعداً، لم يستطع بينيتو أن ينام دون أن يحلم بها.

كنست الراهبة غلوريا وكشطت وغسـلت، وغسـلت مـرة أخـرى، وهـي تصارع سخام العصور الذي غطى الكنيسة. والآن صارت ملابـس القديسـين تفوح برائحة شعاع الشمس.

غسلت غلوريا القديس بطرس عدة مرات، وكل مرة كانت تعانق قدميـه وهي راكعة وتتوسل إليه أن يحـرر يدهـا المدنسـة مـن الخـاتم الـذي حكـم عليها.

في ذلك الصباح أخبرها بينيتو عن زيارة الحواري الوشيكة: «حين يخيم الليل، سيتحدث القديس بطرس معك.»

منذ تلك اللحظة لم تقدر غلوريا على أن تجلـس هادئـة. كـانت تمضـي النهار وهي تتجول في أطراف البلدة، باحثـة عـن بعـض الراحـة لروحهـا. وبعد أن اجتاحتها الحماسة، فشلت في سماع التحذيـرات. لم تصـغ لطـائر الباكا باكا الذي كان يصفر منذراً من قمة شجرة صفصـاف، أو البطـة الـتي تصرخ، منبهةً، من مياه البحيرة.

في غضون ذلك، عرى بينيتو القديس بطرس من ثيابه وخبـأه في عليّـة، ولبس رداءه. ثم حلق شعر رأسه ووضع لحية مصنوعـة مـن خيـوط الصـوف

الأبيض. تسلق وصعد إلى المذبح، وهناك وقف على يمين الصليب وانتظر بلا حراك.

خيم الليل. وحين اقتربت، في النهاية، حمل الله الأكثر جمالاً وهي ترتجف، رفع القديس بطرس ذراعيه وتحدث. قال بنعومة، بما يشبه الهمس: «لقد طلب الله مني أن أنام إلى جانبك وأنزع الخاتم من إصبعك.»

أغمي على غلوريا.

أيقظتها أصابع داعبت جبينها ومسدت شعرها.

انزلق غطاء الرأس الأبيض وسقط.

همس القديس بطرس: «يريدنا الله أن نتعرى جسداً وروحاً.»

«لتكن هذه مشيئته.»

وهكذا صاح الديك في منتصف الليل.

عالياً وبعيداً، غطى القديس بطرس الآخر عينيه.

فيما بعد حاول أن يقف. أصدر ظهره صريراً. شعر بدوار. امتلأ فمه بكلمات ممنوعة.

وفيما كان لا يزال منحنياً، ربت الحواري على خصره المتقرح ليكتشف أنه لم يعد يملك مفاتيح مملكة السماء.

نافذة على الجدران

كُتبَ على حائط في مونتيفيديو: *لا شيء عبثاً كل شيء في الخمرة.*

كذلك في مونتيفيديو: *للعـذراوات أعيـاد ميـلاد كثـيرة لكـن ليـس لهـن حفلات تعميد.*

في بوينس آيرس: «*أنا جائع أكلت* the b».

أيضاً في بوينس آيرس: *سوف ننبعث حتى لو قتلنا ذلك.*

في كيتو: *حين امتلكنا جميع الأجوبة غيروا الأسئلة.*

في مكسيكو: *امنح الرئيس الأجر الأدنى،* سيشعر *بالغضب.*

في ليما: *لا نريد أن نبقى أحياء، نريد أن نعيش.*

في هافانا: تستطيع أن ترقص على لحن أي شيء.

في ريو دي جانيرو: كل من يخشى الحياة لا يولد أبداً.

نافذة على صحف
أميركا اللاتينية المصغرة

مخبلاً من الغيرة، يصنع الإنسان

همبرغراً من الحمام اللطيف.

انتحر قافزاً من الطابق الثاااااااامن

جعله الإفراط في الشراب شاذاً!

لوحة سرقت من فنان أعمى

رسمت بالأذن.

أخ توأم ينمو في معدته

مات رجل عجوز في السينما

وهو يراقب حلمتي صوفيا.

قتل أمه دون سبب معقول.

يموت الرجل مسحوقاً

بعنوانه الخاص.

نافذة على الأوبرا الصابونية

«حق الولادة» كانت أكثر التمثيليات الإذاعية شعبية في جميع الأوقات. إن ميلودراما منتصف القرن أسقطت دموعاً غزيرة في أميركا اللاتينية.

سئل المؤلف: «لماذا تجعل البشر يبكون؟»

دافع فيليكس ب. كانيت عن نفسه: «لا أجعل أحداً يبكي. أقدم لهم ذريعة فحسب.»

قصة الطفل الذي أنقذ نفسه
من حب الأم ومخاطر أخرى

كانت ثمة بيضة تعوم في نهر أوسبانابا.

أدخلت كاريداد يدها في الماء لتمسكها وانحنت فسقطت على رأسها في الأعماق الطينية.

بعد كثير من الرفس، خرجت مبللة ودون بيضة، تبصق الماء والغضب من ثقوب رأسها السبعة. تسلقت إلى الضفة، اصطدمت بأغصان منخفضة، والبيضة التي شاهدت انعكاسها في النهر سقطت من الشجرة واستقرت عند قدميها.

جلست كاريداد. فقست البيضة من حرارة جسمها وولد أندانثيو وهو يجأر.

اندفع لسانها خارج فمها كلسان أفعى. لعقت شفتيها وتأملت الفتى الذي ينمو وقالت: «لي، لي.»

كان أندانثيو ممتناً لأنها، بعد كل شيء، أخرجته إلى العالم. ولكن أينما ذهبت كاريداد كان الطفل يسر بقلقه لفأرة: «أمي تريد أن تأكلني.»

كانت الفأرة تهز رأسها موافقة: «جميع الأمهات يصبحن هكذا.»

في زاوية الثرثرة في بلدة فيراكروث، شكت كاريداد لجيرانها: «أستسلم. العاق لن يكتسب وزناً. التضحية، التضحية. ما الفائدة من تضحيتي؟»

ذهب الطعام كله إلى الطفل. جاءت كاريداد فبدأت تأكل جدران المنزل الطينية. كانت الجدران تنحل بعد كل عشاء، واختفت جميع الآنية الفخارية في بطنها عدا الإناء الكبير.

كل مساء كانت كاريداد تحضر الماء وتهوي النار. حين بدأ البخار بالتصاعد من الماء وضعت حفنة من الملح. ثم ذهبت إلى الزاوية التي كان ينام فيها أندانثيو: «أريني إصبعك»

عرض أندانثيو ذيل فأرة. عصرته كاريداد بعد أن أعماها الغضب، ثم ذهبت وهي تغمغم.

وبفضل الفأرة التي حفرت ثغرة في الجدار النحيل نجح أندانثيو بالهرب.

سار دون أن ينظر خلفه وفي الفجر كان قد دخل عميقاً في الغابة.

من قنة شجرة نخيل، شاهد منزله بين ألسنة اللهب.

كانت كاريداد قد رفست الأغصان المشتعلة فانتقمت النار.

لف الجيران رماد كاريداد في كفن وأرسلوا ضفدعة لترميه في المستنقع.

حين رأى أندانثيو الضفدعة قادمة وهي تقفز حاملة كيساً على ظهرها، سد طريقها. كان يحتاج إلى الكيس، ذلك أنه يكون لك أم واحدة في حياتك: انفتح الكيس في أثناء الصراع وهرب رماد كاريداد.

ركض أندانثيو وغاص في النهر فيما كانت تطارده السحابة السوداء. وهكذا أنقذته المرآة التي قدمت انعكاسه الأول.

لم تستطع الضفدعة التي كانت أكثر بطئاً أن تدافع عن نفسها من جيش الرماح، تُركتْ وجلدها مثقوب إلى الأبد بالعضات.

منذ ذلك الوقت بدأ البعوض يعذبنا.

نافذة
على الديكتاتوريات الامرئية

الأم المضحية تمارس ديكتاتورية العبودية.

الصديق الموسوس يمارس ديكتاتورية أعمال المعروف.

الفضيلة تمارس ديكتاتورية الديون.

الأسواق الحرة تسمح لنا أن نقبل الأسعار المفروضة علينا.

حرية التعبير تسمح لنا أن نصغي لأولئك الذين يتحدثون باسمنا.

الانتخابات الحرة تسمح لنا أن نختار المرق الذي نُطْبَخ به.

قصة معجزة البعوضة

اعتاد كاهن البلدة أن يقول له: «أنت الرجل الأسود الوحيد الذي له روح بيضاء.»

باع مونتون روحه إلى الله. في عودة إلى الخلود، حكم عليه بأن يحيا حياة طيبة.

كان قد عاش حياته القدسية والأبدية لوهلة حين بدأ الكرنفال، كما يجري كل عام، في بلدة سينت مارك. وكما في كل عام، سجن مونتون نفسه وراء القضبان والأقفال، والتجأ إلى الصيام وإماتة الشهوات.

في الخارج ازدهر المهرجان. قذف قرع الطبول العنيف زوبعة بخارية من الأجسام في الجو، رقّصتها الموسيقى، أعادتها إلى الأرض، وطيرتها مرة أخرى.

استمر هذا إلى منتصف ليل الثلاثاء. ثم انتهى وقت المتعة وحانت ساعة التوبة وأداء الواجب.

كان القمر بدراً. ارتفع المد، واختبأت الطيور، برد الهواء، وخرج مونتون من مكان عزلته.

وهو يجلس على كرسي هزاز، في هواء الليل العذب، كان منتون يشرب كأساً من ماء المطر حين دخل البدر فجأة في كأسه وتحطم إلى شظايا.

غرقت بلدة سينت مارك كلها في الشراب. اندفعتْ أنهارُ رمٍ من الكأس المكسورة وسكر الجميع وداخوا في تلك الليلة وفي الأيام التي تلتها. مذاك، يبدأ كرنفال سينت مارك حين ينتهي في جميع الأمكنة الأخرى، في أربعاء الرماد.

في تلك الأيام فقد مونتون قبعته. ثم فقد امرأته: في صباح ما لمس تمثال الجليد ذاك وأدرك أنها أكثر برودة من المعتاد.

وبينما كان التراب يهال على التابوت، تمتم مونتون صلاة المسبحة عن الألغاز الخمسة عشر، ولم يقدر أن يمنع شفتيه من التوسل إلى الله: «لا تفكر حتى بأن تعيدها إلى الحياة.»

رمى حفار القبور المزيد من التراب إلى أن آلمته ذراعاه، لكن الحفرة لم تردمْ. كان كل تراب العالم غير كاف لملأ أعماقها. ولم يكن أمامهم خيار سوى أن ينصبوا الصليب في الأسفل، وسط ذلك الفم المفتوح.

قال حفار القبور الذي يعتبر حكيماً: «لا تزال الأرض جائعة.»

قهقه مونتون بعصبية. دار رأسه وخذلته قدماه، وأغشي عليه.

الأقرباء والجيران هووا للأرمل، ضحية حرارة الظهيرة، أو ألم فقدان لا يعوّض.

بعد بضعة أيام، لاحظ مونتون أن جسمه يعكس ظل شخص آخر. في ضوء النهار أو النار، ينمو ظل جسم آخر من ظله ويذهب حيث ينبغي ألا يذهب. ومن جسد مونتون هبت ريح مجنونة أسقطت كتاب الصلاة من يديه، جعلت الزمامير تعزف وتنورات النساء تنتفخ.

مونتون الذي كان دائماً رجلاً مقتصداً في الطعام بدأ يلتهم الأشياء بجوع لا يشبع: ازدرد أشياءه وأشياء الآخرين، النيئة والمطبوخة، الثابتة والمتحركة. عدو التبغ بدأ يدخن دون توقف، عابد الماء بدأ يشرب الكحول. آكلاً وشارباً ومدخناً صار يهذي ويتفوه بالهراء لأحفاده المذهولين.

اشتبه الأولاد بعين شريرة فقرروا نقل المنزل، سحبوه من أوتاده وأخذوا جدرانه وسقفه وكل شيء، إلى الطرف الآخر من البلدة. نشروا على الأرض قشور بيض، ونصبوا جمجمة بقرة وسط قطعة الأرض، وعلقوا جدائل ثوم حول عنق جدهم الذي حلت به مصيبة.

ساءت الأمور. ذلك أن شهيد حياة العمل صار يمضي النهار والليل على الأرجوحة الشبكية العذبة لصدر أي امرأة، منغمساً في فعل الحب إلى أن

يشع الضوء عبره. على مذبح منزله، حيث اعتاد أن يعلق المسيح المصلوب، زرع مونتون شجرة فردوس، حمراء الثمار ومليئة بـالطيور، تبجيـلاً لعشـاق غير مصابين بمرض السرة أو الذاكرة أو الواجب.

مرض البشر من الأعلى مثـل النباتـات. قـرر أحفـاد مونتـون أن جدهـم مريض من رأسه. وبما أن وضعه كان يسوء، أخذوه إلى ذكـر المـاعز الكبـير. كان ذكر الماعز يستخدم لحيته كورقة. إذا شددت لحيته يتحدث.

طرح أحفاد مونتون سؤالهم. ومن الشدة الأولى قال ذكـر المـاعز الحقيقـة متمتماً دون أن يستيقظ: «البعوض.»

لم يفهم الأحفاد. لم يذكروا أنه في صباح ما، منذ فترة، اسـتيقظ جدهـم منتفخاً من العض.

كان البعوض مسؤولاً عن ذلك. امتص كمية كبيرة من دمه فقاموا بعمليـة نقل للدم. حصل مونتون على دم مذنب مشهور يدعى فيفـي. كـانت حالـة تحوّل روحي لا تُعالج. ترك مونتـون كمـا كـان، وفيفـي الـذي كـان هـاوي ملذات لا يتعب، أصبح غير قـادر علـى المغـامرة، محكومـاً عليـه أن يكـرر الأيـام غـير قـادر علـى أن يشـرب دون أن يتقيـأ، أو يمـارس الحـب دون خطيئة، أو يشعر دون تفكير.

نافذة على الكلمة ٤

تقصُّ ماجدا ليمونييه الكلمات من الصحف، كلمات من جميع المقاسات، وتحفظها في علب. تضع الكلمات الغاضبة في علبة حمراء، والكلمات الجميلة في علبة خضراء، والحيادية في علبة زرقاء. وفي علبة شفافة تحفظ الكلمات السحرية.

أحياناً تفتح العلب على الطاولة، بحيث تتمازج الكلمات على هواها. عندئذ تقول لها الكلمات ما يحدث وتتنبأ بما سيحصل.

قصة عودة كبير الملائكة

أصبحت حياة مونتون كرنفالاً، رقصاً أبدياً في الجو. في أحد الأيام، وهو يحتفل بإساءة البعوض، سمع شخصاً ما خلفه ينظف حنجرته بالتنحنح. استدار لكنه لم ير أحداً.

«استسلم.»

نظر إلى الأسفل وانفجر ضاحكاً. رأى قزماً دميماً متقلصاً يلبس كرجل شرطة. قطع كبير الملائكة ضحكه ببرودة قائلاً: «لقد أرسلني الله.»

«لقد سمعت به؟ لدي أوامر بالقبض عليك.»

مواجهاً بثقل الدليل، شحب الرجل سيئ الحظ. حتى تلك اللحظة كان الموت كالمرض أو الشيخوخة، شيء ما لا يحدث إلا للآخرين.

«حفلة الذهاب بعيداً»، تأتأ وسكبت يده المرتجفة رشفتين من الرم الأبيض.

«يجب ألا أشرب»، تمتم القزم مفرغاً الكأس برشفة واحدة.

وتبع كأس آخر: «نحن لحظات، هذا كل شيء، مجرد لا شيء»، تنهد مونتون. بعد وقفة وافق معه كبير الملائكة، هازاً رأسه: «الخوف هو الذي يحكم.»

في ضوء الشمعة تضخم جسد مونتون، جسد بلون ظله، ظِلٌّ نمى مع جسده.

حين فتح الزجاجـة الثانيـة، جمـع الرجـل الأسـود العجـوز الشـجاعة ليسأل: «هل قضيت فترة طويلة في هذا؟»

لم يقل مبعوث الله شيئاً.

ولكن بينما كان الـرم يتغلغـل، تدفقـت الكلمـات. تذكـر كبـير الملائكـة الأيام القديمة في كوماياغوا، الحياة الجيدة الجديـرة بـأن تعـاش، العظيمـة والعابرة، وروى كيف أن العملاء المجنحين للغيب العظيم اختطفـوه: «لقـد أعادوني.»

ولكنه منع مـن المهمـات التخليصيـة، ولا يستطيع أن يـزور الأرض إلا لكي يسترد أولئك المحكومين بالموت.

وفيما هو يروي مشكلاته نام.

حين استيقظ، كان الفجـر يطلـع. وفجـأة تذكـر كبـير الملائكـة عملـه: «غبار، رماد، قبض ريح،» حذر صوت الواجب، الأجش من ثقل الشراب.

مونتون، الذي لم يهرب، كان يهتز بطمأنينة في كرسي هزاز.

قال: «إذا أردت أن تأخذني معك يجب أن تحل وثاقي.»

وبإصبعين أمسك شعر امرأة ليس مـن الـرأس أو الإبـط. «اقطعـه،» ألح.

«لا أقدر.»

حاول كبير الملائكة. حاول بأسنانه، وبشفرة سكين، وبضربـات فـأس. ولم ينقطع ذلك الشعر.

طلب كبير الملائكة توجيهات من السماء.

مزق القديس ميكائيل ريشـه مـن الغضـب. هـزت صرخاتـه المجـرات: زعيم كبار الملائكة لعن الأبله الذي وقع في خدعة قديمة قدم العالم، خدعـة يعرفها الجميع، وأقسم أنه سيرسل ذلك التافه إلى الجحيم.

لكن التراتبية السماوية طلبت إغلاق القضية. ذلك أن الشـيطان لا يقبـل ضيوفاً دون توقيع من الله. ولم يتجرأ أحد على إزعاج إلهنا بحكايـة مذلـة وجديرة بالنسيان. كانت تنشب حروب وثورات جديدة كـل يـوم في الكـون

اللامتناهي والمضطرب، ولم يكن الله في مـزاج جيـد لكـي ينشـغل بشـيء لا يسر.

الموظف الفاشل، الذي بدا أكثر من مرة مهملاً، أحمق، وفاسداً، قُيِّد إلى سحابة وحُكِمَ عليه بأن يصغي طوال الأبدية إلى كورس الملائكة الذي يتمرن على أغانيه التي تمدح عظمة الخالق وعطشه الذي لا يرتوي إلى الدموع.

حـين هـرب كبـير الملائكـة، اختفـى الأفـق. تحولـت السـماء إلى بحـر وتدفقت مطراً.

سار مونتون تحت المطر، عبر العالم الذي كان يوقظه المطر.

نافذة على الممنوعات

على حائط بمطعم في مدريد علقت لافتة تقول: الغناء ممنوع.

على حائط في مطار في ريو دي جانيرو علقت لافتة تقول: ممنـوع اللعـب بعربات الأمتعة.

هكذا: لا يزال هناك بشر يغنون، وبشر يلعبون.

قصة منزل الذرة

كان أندانثيو يتيماً دون مأوى. في رحلة حج بحثاً عن منزل على الأرض، وصل إلى شواطئ خليج مكسيكو.

انتصبت صاعقة لتحمي ممتلكاتها. جالساً على ذيله الطويل البراق، كان البرق ينفجر على المتطفلين. يصرخ من أعالي هيبته الإجرامية: «ليس هنا».

وترعد السماء غضباً.

أشار أندانثيو إلى الأفق. متحدثاً بنعومة وكأنه يعتذر، التقط حجراً وتحدى: كل من يرمي حجراً تعبر البحر كله سيفوز.

لم تجب الصاعقة، لكنها اختارت حجراً، تراجعت ورمت. رسم حجر الصاعقة انحناء مدهشاً عبر السماء، وبعد أن اقترب من الشمس سقط في المياه، قبل الأفق.

أندانثيو دعا الحمامة ونقار الخشب بشكل سري. ثم أصبح جسمه قوساً ورمى الحمامة كأنها حجر، فطارت الحمامة عبر الجو وغابت من مدى النظر. بعد برهة، نقر نقار الخشب شجرة ميتة بمنقاره وقلد صوت التجويف صوت الحجر الهابط على الشاطئ الآخر.

نكّستْ الصاعقة رأسها. وكان عليها أن تذهب إلى حيث رمي حجرها. أمر أندانثيو البرق أن يعلن بدء زمن الماء على الأرض، وأن يرسل المطر ليغسل جسده ويجعله ينمو.

هكذا عثر أندانثيـو علـى الأرض والمطـر، ونمـا لـه جسـد طويـل وأوراق وآذان ولب وحرير. وكان هو الذرة.

نافذة على الدورات

البشر المصنوعون من الذرة يصنعون ذرة. البشر المصنوعون من نواة الـذرة وألوانها يحفرون مهداً للذرة ويغطونهـا بتربـة طيبـة ويعشـبونها ويسـقونها ويقولون لها كلمات حب. وحين تطول الذرة، يطحنهـا البشـر علـى حجـر ويرفعونها ويصفقونها ويضعونها علـى نـار محبـة ويأكلونهـا وهكـذا تتـابع الذرة سيرها على الأرض داخل بشر الذرة.

قصة انبعاث الببغاء

سقط الببغاء في إناء يتصاعد منه البخار. رفع رأسه فشعر بالدوار، وسقط من جديد. سقط لأنه كان فضولياً، وغرق في الحساء الساخن.

الفتاة، التي كانت صديقته، صرخت.

قشرت البرتقالة قشرها وقدمت نفسها لتعزيها.

ندمت النار التي تحت الإناء وانطفأت.

تخلص الحائط من حجر.

الشجرة التي تستند إلى الحائط ارتجفت من الألم فسقطت جميع أوراقها على الأرض.

وفي يوم آخر جاءت الريح لتمشط الشجرة المورقة، فوجدتها جرداء. حين سمعت الريح القصة، أطلقت تنهيدة قاصفة فتحت النافذة وهبت في العالم دون هدف، وصعدت إلى السماء.

حين سمعت السماء الأخبار السيئة، شحبت.

وحين رأى الرجل السماء شاحبة فقد النطق.

أراد خزاف ثيارا أن يعرف ما الذي حدث. أخيراً، استعاد الرجل لسانه وأخبره أن الببغاء غرق

وأن الفتاة بكت

وأن البرتقالة قشرت نفسها

وأن النار انطفأت

والجدار فقد حجراً
والشجرة فقدت أوراقها
والريح فقدت هبة
وأن النافذة انفتحت وجردت السماء من لونها
والرجل من الكلمات.

بعد ذلك جمع الخزاف الحزن كله. ونجحت يـده في أن تحيـي الميـت بهذه المادة.

الببغاء الذي ولد من الحزن امتلك ريشاً أحمر من النار
وريشاً أزرق من السماء
وريشاً أخضر من أوراق الشجرة
ومنقاراً قاسياً من الحجر وذهبياً من البرتقالة
وامتلك كلمات إنسانية لينطق
وماء من الدموع ليشرب وينتعش
وامتلك نافذة مفتوحة للهرب
وفعل ذلك هارباً في عصفة الريح.

نافذة على الذاكرة ١

على شواطئ بحر آخر، استقال خزاف عجوز.

غامت عيناه، ارتجفت يداه، وحانت ساعة التلفظ بالوداع. ثم بدأ طقس الشعائر: قدم الخزاف العجوز للخزاف الشاب أفضل قطعة لديه. وكما تملي التقاليد بين هنود أميركا الشمالية الغربية، يمنح الفنان العابر رائعته للفنان القادم. وذلك الخزاف الشاب لا يحفظ ذلك الأصيص الكامل ليتأمله أو يعجب به: يسحقه على الأرض، يكسره إلى ألف قطعة، يلتقط القطع، ويدخلها في صلصاله الخاص.

قصة الشبح

كان الطعم الأول الذي يتذكره هو طعم جزرة.

الرائحة الأولى، بطيخة محززة نصفين.

تذكر أنه صرخ حين اكتشف المسافة.

وتذكر الصباح الذي اكتشف فيه ظله.

في ذلك الصباح رأى، حتى ذلك الوقت، ما نظر إليه دون أن يرى: علق بقدميه ظل أطول من جسده.

سار، ركض. أينما ذهب، لا يهم إلى أين، كان الظل يطارده.

أراد أن يتخلص منه. أراد أن يدوس عليه، يرفسه، يضربه، ولكن الظل، الأسرع من ساقيه وذراعيه، كان ينجح دوماً في خداعه. أراد أن يقفز فوقه، لكنه كان يقفز إلى الأمام دوماً. استدار بسرعة فتخلص منه في الأمام لكنه عاود الظهور من الخلف. ضم جذع شجرة، استند إلى حائط، انحصر خلف باب. أينما اختبأ، كان الظل يعثر عليه.

في النهاية نجح في التحرر منه. قام بقفزة طائرة، ممداً في الأرجوحة الشبكية، وفصل نفسه عن ظله.

كمن تحت الأرجوحة لينتظره.

فيما بعد اكتشف أن السحب، والليل، والظهيرة، تقمع الظلال. ووجد أن الظلال تعود دوماً، تلاطفها الشمس، كخاتم يبحث عن إصبعك، أو معطف يسافر نحو جسمك.

وهكذا اعتاد عليه.
حين كبر كبر ظله معه وخاف من أن يفقده.

مر الوقت. والآن فيما هو يتقلص، في الأيام الأخيرة من حياته، يخـاف من أن يموت ويتركه وحيداً.

نافذة على الوجه اللامرئي

كل شيء له وجه وعلامة مثلنا جميعــاً. الكـلاب والثعـابين والنـوارس، أنت وأنا، الأحياء والأموات، وكل من يســير، يتمعّـج، أو يطـير: جميعنـا نملك وجهاً وعلامة.

هذا ما يؤمن به هنود المايا. ويؤمنون أن العلامة، العلامة اللامرئية، هي وجه أكثر من الوجه المرئي. ولسوف تُعرف من علامتك.

نافذة على المملكة التي كانت

في سيومال، قالت الجدة، قديماً جداً في الزمن البعيد، لم يكن البشر والأشجار يجفوا. حين يؤذي الألم الأول، لا يعرف أحد إن كان أبيض، أو أحمر، أو أسود. حين حصل الموت الأول، لم يمتلك أحد اسماً له. حين غزت أراضي سيامول ظلال الألم والموت، اختارت الشمس رجلاً وأنقذته بعد أن جذبته جانباً بأشعتها. ومذاك أضحى وحيداً، خارج الزمن، ينام في ملاذ الشمس التي تندفع فوق الأفق.

قالت الجدة: «الشخص الأخير من سيومال ينتظرك.»

حكاية الزمن الذي كان

بعيداً في الزمن المفقود في الزمـن، تقـول الجـدة، كـان الأيِّـل أسـرع مـن السهام التي تطلق عليه. الثعبان يتجول علـى الأرض يخشـخش احتفـالات من الرأس إلى الذيل، وخشخشته تصدح كل يوم ويـتردد صداهـا في المـاضي والمستقبل.

كان الديك الرومي لورد الأراضـي المرتفعـة، وتصـل صيحتـه إلى الزوايـا الأبعد.

حين حان وقت المصيبة في يوكاتان، لم يعد الأيل يجري كالريحِ، كـان يصاب ويبكي. عيناه السائليتان، اللتان قدمتا لبقية المجروح شيئاً يشـربه، بقيتا نديتين وضخمتين إلى الأبد.

فقد الثعبان خشخشة سعادته. مذاك، بدأ جســده العـاري لا يصـدر إلا خشخشة الخوف.

وسقط الديك الرومي إلى الأراضي المنخفضة حيـث لا يسـمعه أحـد، ولم يقدر بعد ذلك مطلقاً أن يطير عن الأرض حيث منبوذو السـماء يعـانون مـن المنفى.

نافذة على الذاكرة ٢

ملاذ؟

بطن؟

مخبأ يخبئك حين تغرق تحت المطر، أو ترتجف من البرد، أو تـدور في الريح؟

هل نمتلك ماضياً رائعاً أمامنا؟

بالنسبة للبحارة الذين يحبون الريح، الذاكرة ميناء انطلاق.

نافذة على الوصول

عمّد ابن بيلار ودانييل واينبرغ علــى الســاحل. علمّـه التعميـد مـا كـان مقدساً.

قدموا له محارة: «هذه ستعلمك أن تحب المياه.»

فتحوا قفصاً وحرروا طائراً: «وهذا سيعلمك حب الجو.»

قدموا له نبتة ابنة الراعي: «وهذه ستعلمك أن تحب الأرض.»

وقدموا له زجاجة صغيرة مختومة بإحكام: «لا تفتحهـا مطلقـاً. وهكـذا تتعلم أن تحب السر.»

نافذة على الفراق

كان أبناء الأحفاد يلبسونها ثيابها من أجل المدرسة. وكل يوم في الظهيرة، تجر تلك العجوز نفسها خارج السرير، عصبية جداً لأن المدرس سيكون غاضباً، ويطلب المئزر الأبيض وعصابة الرأس الزرقاء:
«أسرعي، أسرعي، تأخر الوقت.»

رجل عجوز ينسخ رسوم طفولته. رسمها منذ سبعين عاماً. وبينما هو ينسخها، بينما هو ينسخ نفسه، يده لا ترتجف.

يحتفظ ببعض الصحف القديمة مثله، ملفوفة ومربوطة بحرص بالأسمال. إنه خائف من أن تهرب الكلمات.

نافذة على الأسئلة

صوفيا أوبالسكي متقدمة في السن جداً، لا أحد يعرف كم عمرهـا، ومـن يعرف إن كانت تعرف. لديها ساق واحدة وتتحـرك علـى كرسـي مدولـب. كلاهما مهترئ، هي والكرسي. براغي الكرسي مرتخية، وكذلك براغيها.

حين تسقط، أو حين تقلب الكرسي، تسـحب صوفيـا نفسـها بقـدر مـا تستطيع إلى الهاتف وتدق الرقم الوحيد الذي تتذكـره. وتسـأل، مـن نهايـة الزمن: «من أنا؟»

بعيداً عن صوفيا، في بلاد أخرى، هناك لوثيا هيريرا، التي ولدت منـذ ثلاث أو أربع سنوات. تسأل لوثيا، من بداية الزمن: «ماذا أريد؟»

قصة الحوذي

قضى اليوم منتظراً، دون حراك في مقعد السائق، الأعنة في يديه. في كل مرة، أو مناسبة عظيمة، يظهر سائح، أو أحد ما يريد أن يشم الأحياء الفقيرة والقديمة والأزمنة المنصرمة. وفي مناسبات نادرة تظهر أسرة ما من منزل كبير، من الأسر التي تذهب إلى القداس حتى ولو لم يكن اليوم هو الأحد.

أحياناً يغلبه النعاس وهو ينتظر. وربما يحلم السيد أنتينور أن أسنانه المفقودة عادت إلى فمه، وأن الشعرات الساقطة عادت إلى شعره، وأن جسمه تخلص من سمنة الشيخوخة. أو ربما يحلم أنه خلف عجلة سيارة مرسيدس جميلة، منتصب إلى الأمام في بزة جديدة تحت لافتة مضاءة كتب عليها: «تاكسي.»

حين يخيم الليل، يهز السيد أنتينور الأعنة: «هيا أيها الذي بلا فائدة.»

لكن الحصان يوسليس لا يسرع، وإنما يمشي إلى المنزل ببطء.

في الظلام، يقطف السيد أنتينور الملفوف في طريقه ويملأ بضعة أكياس.

اختار البروفيسور أن يجلس قرب السائق. جاء من العاصمة ليلقي كلمة في مركز ميمونيدس لعلاج الربو، وأراد أن يشاهد كارتاجينا دي إندياز بالطريقة الأفضل.

سافرا في ظل الجدران وعلى حافة البحر، على طول أزقة المدينة القديمة، تحت أقواس حجرية ودعامات خشبية ناتئة لشرفات متدلية، ثم عبر الجادات المختنقة من الازدحام في الجزء الجديد من البلدة.

وعلى إيقاع خطى الحصان ومرور الساعات أثنى البروفيسور على البطولة الصامتة للسيد أنتينور، شرارة ذاكرة الأمة، حصن التراث الضائع: «أنت جزء من التراث التاريخي لبلادنا،» مدحه، وهنأ ظهره ببضع ضربات من راحة كفه.

حين انتهت الرحلة، بقي البروفيسور برهة ليتحدث. نظر عميقاً في عيني السيد أنتينور ووصف له زيت كبد القد. وحين نزل من العربة سأل كم الأجرة.

أساء له الجواب: «إنك تنزل من شأن تقييمك لعملك كحوذي ولتضحية الحيوان النبيل الذي يرافقك؟»

وغادر دون أن يدفع، غاضباً جداً، واختفى وراء المنعطف الأول.

طرد السيد أنتينور الكلاب من روحه وهو يهين يوسليس ويجعل السوط يصفر فوق أذنيه.

كانت الأمور تزداد سوءاً كل يوم ويخيم الظلام باكراً ويصبح خبزه اليومي بعيد المنال: السمكة تسبح في مكان عميق جداً، والطيور تحلق عالياً.

لكن السيد أنتينور بقي هناك في الساحة رغم كل شيء. تماماً كما في الأيام القديمة، حين كانت الشوارع مليئة بالقادمين والذاهبين، الضجة والنشاط الصاخب، أو بدون آلات أو تقريباً بدونها. في ذلك الوقت كانت عربة (كيسر) عربة للسيدة الأولى، ولمصارعي الثيران والصادحين من أسبانيا، أسياد مصارعة الثيران والأوبرات الهزلية، وكانت تأخذ النساء اللائي يحملن المراوح إلى مهرجانات الحفلات الراقصة. تعرض عربة كيسر أحرفاً ذهبية على أبوابها، جوادها يصهل معبراً عن بهجته، وكان السيد أنتينور يعرف أسرار المخادع وغرف المحامين، وحياة ومعجزات البشر الأكثر روعة.

لم يعد أولئك البشر موجودين ولا الأشياء التي أرادوها، لكن السيد أنتينور كان هناك. وكذلك كانت عربة كيسر، مليئة بالثقوب وتعرج على العجلة. وهكذا كان الحصان البائس، على عكس فنتانيا، الذي اعتاد أن يولّد الشرر من الحصى ويقوم بمسير مظفر. كان يوسليس يتجول فحسب، نصف نائم، دائراً حول الساحة، بينما كانت السيارات تزأر في دوار السير.

حين جاء عيد عذراء كانديلاريا، تسلق حشدٌ في موكب إلى قمة هضبة مرتفعة حيث تعيش. ذهب السيد أنتينور كذلك. زحف على ركبتين داميتين، وقد أعمته الشمس والغبار، وتوسل من أجل معجزة. طلب منها أن تدمل جراح روحه، الجراح التي لا تندمل: تحدث بهمس الطفولة الذي استخدمه حين دعاها عشيقته، التي تجلس قربه، ومنحته الأسوار التي تحيط بالمدينة القديمة.

لكن العذراء كانت مشغولة بفتح طرق في البحر، بإنقاذ الغرقى، وتوجيه الأسماك إلى الشباك الفارغة. في ذلك العام حدث الكثير من أفعال الشر على المياه، وهذا عمل كثير لسيدة البحارة، ولم يكن لديها وقت للحظ السيئ أو الأرض الجافة.

وبينما كان السيد أنتينور يصلي في الأعلى، صارخاً في أذنيها الصماوين، كان يوسليس في الأسفل، مقيداً إلى عربة كيسر، يشوى تحت أشعة الشمس التي كانت شرسة في الظل هذا إذا كان هناك ظل. مضغ يوسليس بعض الأعشاب الجافة، عض اللجام، ولعن ذلك المتوحش العجوز الذي عامله كأنه مصنوع من الخشب، ولقد أمضى حياته في حزام السرج وفمه مغلق وكان أقل ما يستحقه قبعة بريش ملون ووليمة من الذرة الأرجوانية، سيقان الألفالا، البرسيم الطازج ووجبة من دقيق الشوفان.

في تلك الليلة هرب يوسليس مريضاً من مضغ الأوساخ والحزن مع الأشواك كحلوى. أراد أن يعدو وينطلق عبر البلاد ويضيع في الخضرة

ويتدحرج على الأرض ويأكل حتى يشبع من العشب الطري ويصهل إلى أن يخرس.

أراد أن يعدو وفعل ذلك متهوراً، وكان هذا أطول عدو في حياته.

وراء الضواحي تعثَّر وسقط. بصعوبة نجح في النهوض: تردّد حافراه، طنّ صدره، وصدر أنينٌ عن جسده المجروح. كان على يوسليس أن يسلم نفسه لطريقته القديمة في السير. وخطوة بعد أخرى تابع هربه، إلى أن انهار تحت الأغصان المتدلية قرب الساحل.

كان النجار يثبّتُ مكابح العجلة حول المحور حين نظر إلى الأعلى وشاهده. كان السيد أنتينور يقترب. في سحابة غبار الصيف، بدا شكله ملتوياً: بطريقٌ مقليٌّ في فراكه، ذاكرة قبعة، ربطة عنق متدليّة بأجنحة ذاوية. دار حول منعطف الطريق عالقاً بالأعمدة، جاراً عربته. كانت عربة كيسر تندفع وهي تصرّ كأسلاك النوابض المحطمة، وكان السيد أنتينور يتعرّق بغزارة.

أنهى النجار العجلة على الفور. قال له السيد أنتينور المنهار في ظل العربة أنه قرر أن يتابع عمله دون خدمات حصانه. وقال إن عمله يتخذ دورة جديدة. الآن سيحرك الأشياء، سينقل البضائع ويقوم بأي شيء.

مرت الأيام والأسابيع. وتابع يوسليس طوافه مختبئاً. كان يراقب كل يوم السيد أنتينور وعربة كيسر ينطلقان، يجر أحدهما الآخر، ومن رائحتهما كان يعرف إلى أين يتجهان.

تردد يوسليس. سار، حاول أن ينطلق، لكنه تابع العودة. لحس ساقه الهزيلة، وتردد. حك أضلاعه بحافره وتابع تردده. مضغ الأعشاب، مضغ شكوكه، استلقى قرب السقيفة العارية التي كانت منزله ونام.

وفي فجر أحد الأيام، فتح يوسليس الباب بخطمه. كان الضوء الضعيف كافياً ليكشف سريره القشي وطقم الفرس الذي يتدلى على الروافد.

خرج السيد أنتينور من العربة لا تكاد ساقاه الطويلتان الهزيلتان تحت قميصه الليلي الشبحي تسندانه. أشار إلى الحوض المليء بالماء متمتماً:

«هناك ستجد قليلاً من الماء.»

«أنا أشرب البيرة،» قال الحصان.

نافذة على الوداع

لم يستطع أن ينام. أنقذ أحلامه في كيس تسوق، لكن الكيس انفتح وهربت الأحلام، ولم يعد بوسعه أن ينام لأنه لم يعد لديه أحلام يحلمها.

هذا ما قاله. قال كذلك إنه أضاع يومين، الاثنين والثلاثاء، وبحث عنهما يائساً لكنه لم يعثر عليهما في أي مكان.

لم يكن ألمه قصيراً. كان هواؤه يقل. وهو يتجه إلى النهاية، مصلوباً على الأنابيب، كان كل ما بوسعه أن يفعله هو أن يقول: «يا لها من هضبة مرتفعة يجب تسلقها.»

ومات دون أن يعثر على أحلامه أو على اليومين اللذين أضاعهما.

لم يكن لديه شيء آخر. لم يرد فرناندو رودريغويز أبداً أن يملك. لم يملك أي شيء، إنه رجل عار، وتجول عارياً، يطارده أطفال وطيور وبشر مجانين.

قصة الإسكافي
الذي هرب من دائنيه

«الاسم والكنية؟»

لا جواب.

دق رئيس الشرطة على صدره ثلاث مرات: «هل أنت ميت؟»

تمدد كانديدو صامتاً. أعلنت السلطات أنه جثة.

رافعاً عينيه إلى الأعلى ليراقب حاجبيه، استلقى كانديدو متسائلاً. عامت سحابة تفكير صغيرة فوق رأسه فحسب: «لنفترض أنهم يدفنون التابوت وأنا فيه؟»

خلّد شاعر واقعي اشتراكي محليٌّ الإسكافي الشقي على الفور في قصائد سباعية. غنى الحياة الشقية للمتوفى الذي حطم ظهره وهو يطرق الجلد نهاراً وليلاً ليطعم عائلته غير المتنة، والذي كلما عمل يقل كسبه وتزداد ديونه.

من ناحية أخرى، تذكر جيرانه وأقرباؤه مقته لعرق جبينه الذي أنتج الغثيان والحساسية الجلدية. وفقاً لهم، لم يرتد الإسكافي فردة حذاء. وكان يفضل أن يكسب من خلال بيع جرة مليئة بهواء من فرنسا، أو زجاجة تراب مكسيكي قَبَّلها البابا، أو ملاعق خشبية جيدة لسرقة الطعام من العميان.

هذا ما قالوه، لا أعرف. ولكن الحقيقة هي أن كانديدو حين قام بتلك الخطوة المأساوية، كان يدين بشمعة لكل قديس. بيديه ركّب تابوتاً من خشب الصنوبر، دهنه، وضع مشبكاً يحمل اسمه، واعتبر نفسه ميتاً من موت تمَّ باحترام.

نقلت الجثة إلى الكنيسة. كثير من الديون، ليس هناك دائن. لم يندب كانديدو سوى دائنيه الكثيرين. متصلباً في التابوت، ويداه متصالبتان على صدره، أصغى إلى ضحاياه يئنون إلى أن غادر جميع من خُدِعوا. ثم لم يسمعِ إلا تمتمات امرأة ورعة تصلي طالبةً الصفح عن خطايا لم ترتكبها مطلقاً. وحين خيم الليل، بقيَ الميت وحيداً.

انتظر، وأخيراً قرر. حك عينيه المتألمتين وببطء وضعَ إحدى رجليه خارج التابوت ثم تبعها بالأخرى. حين نهض، صرّ التابوت. وضع سبابته على شفتيه وقال لنفسه: صمتاً!

بدأ سيره، خطوة خطوة. شق طريقه، حافي القدمين، في الكنيسة التي يغمرها الظلام. تحت الصليب، تحت يسوع، بين مريم المجدلية ومريم العذراء، وجد مكاناً جيداً للجلوس. أخرج سيجارة من جيب كفنه وأشعلها من فتيل شمعة. وهذا ما كان يفعله، مدخناً ومحتفلاً، حين سمع ضجة وكان عليه أن يعود إلى تابوته.

حين أفرغ اللصوص المذبح، وعروا الجدران والقديسين، تفوه الإسكافي، صامتاً، بالصلاة الربانية وبالسلام عليك يا مريم وبأحجيات ماكومبا. لكن فضول زعيم العصابة ازداد: «ربما في هذا الجسد سن ذهبي.»

حين شعر كانديديو بذلك المخلب يجوب بين فكيه، عضَّ بكامل قواه وانتصب جالساً في التابوت.

اللص، الذي جحظت عيناه، انهار على الأرض وفرت العصابة كلها وهي تزأر تاركة أجنحة الملائكة والحرير والفضة مبعثرة خلفها.

جاءت البلدة كلها لتبجل لازاروس الجديد.

أحضر له الجميع تقدمات. جاء البشر حاملين الدجاج تحت أذرعهم وأكياس الحبوب وأكثر الحلي بريقاً. دائنوه، كذلك، قبّلوا قدميه.

من على عرشه في الفردوس تلطّف الأب المقدس وألقى نظرة على تلك القرية الصغيرة الضائعة في عزلة ألاغواس. ولقد اختار أكثر أبنائه تواضعاً لإنقاذ المعبد، منزله، جسده الذي انتهكه الشيطان.

وذلك الذي عاد إلى الحياة أصبح مجترح معجزات. وكان كانديدو يطلب مقدماً أجر معجزاته. ولم يكن قديساً رخيصاً. يقول: «ماذا يريدون؟»

«فضلاً من الله من أجل سعر الموز؟»

وحسب شهود عيان أحياء، انتهى جميع دخله إلى القوادين ومنازل القمار في مدينة ماثييو البعيدة. وهو يتأمل القطع النقدية بين يديه، كان كانديدو يقول: «لماذا القطع النقدية مستديرة؟ هكذا تستطيع أن تتدحرج.»

وهكذا مرّت الأعوام.

لم يحصل الجائعون على إرث،
ولم يسر المشلولون،
ولم ينم شعر للصلعان،
والعوانس لم يتزوجن،
ولم تمطر في الصحراء،
ولم يكبر الأقزام،
وفي أحد الأيام مات كانديدو. ولم يستيقظ.

نافذة على البحر

ليس مثبتاً في مكان واحد. مصير الجبال والأشجار يكمن في الجذور، لكن البحر، مثلنا، محكوم عليه أن يحيا متجولاً.

بحارة في القلب: نحن، رجال الساحل، مصنوعون من البحر كما نحن مصنوعون من البر. ونعرف ذلك جيداً حتى ولو كنا غير مدركين لذلك حين نبحر في أمواج شوارع المدينة من مقهى إلى آخر، ونسافر عبر الضباب إلى الميناء أو الغرق الذي ينتظرنا؟

قصة سحرة البحر
الجنوبي المشاكسون

في الأيام القديمة، كان السحر زائراً متكرراً لجزر تشيلوي. وحين لا يشعر السحرة بالميل إلى الطيران يأتون راكبين على حصان بحري ضخم ينفث أمواجاً من الزبد وانفعالات كريهة من منخريه. يترجلون في منتصف الليل، قافزين على ساق واحدة وبمرايا جيب تشير إلى المختارين لأفعالهم الشريرة. من بعيد يبدون كألسنة لهب قافزة: تحت أرديتهم يلبسون صدارة مشتعلة مصنوعة من جلود الموتى المبللة بالدهون البشرية، وبهذه المصابيح يضيئون الممر.

ولم يكن الأمر هكذا دوماً. أحياناً يتحولون إلى أسماك بارزة الأسنان تسبح على الأرض الجافة وفيها توق شديد إلى اللحم المسيحي. وفي أوقات أخرى يظهرون في أشكال خفافيش تطير بحثاً عن أعناق جديرة بظمئها. تلك البومات الشبحية التي تفتح جراحاً لا تشفى في كل شيء تنظر إليه هي سحرة ممسوخون، والغربان التي تصدر لعنات وتحبل العذراوات بلمسة من أجنحتها هي سحرة كذلك.

على الجزر، يسرقون النساء. أيديهم الساحرة، نيران الجحيم، كانت الدواء الأفضل لجليد الشتاء وكثير من السيدات حلمن بالاختطاف.

حين يتعبون من الطقوس العربيدة لشفاء النساء الورعات، يترك السحرة قصورهم المرجانية في أعماق البحار. يبزغون من المياه، جلودهم تتلألأ بالطحالب، وينطلقون في سفينة شبحية.

بين جزيرة النوارس وتييرا ديل فويغو شاهد كثير من الصيادين تلك الأشرعة الحمراء الرائعة تندفع من البحر وتتلاشى في الضباب الأسود، وسمعوا أصداء موسيقى مرحة وألف ضحكة من الاحتفالات اللانهائية على سطح السفينة. وأقسم أكثر من قاطن محليّ، واضعاً أصابعه على الصليب، أن السفينة الشبحية دخلت إلى الميناء في ترين ترين، يطاردها حشدٌ من الطيور المتوحشة، لإصلاح الهلك الذي آذته غزوات بعيدة، أو أن تلك السفينة سافرت في البحر قرب كهوف كوينكافي، حيث أخذ السحرة الماء من النبع الشلال الذي يمحو التعميد.

في تلك الأيام كانت السفينة الشبحية متعة الليل.

في نقطة ما بلا تاريخ وفي مكان بلا خريطة، عثروا على ما بحث الآخرون عنه. عثروا عليه بالمصادفة. وكما تؤكد حوليات تاريخ السحر كانوا يمرحون في الأصقاع البعيدة حين عثروا على جزيرة مكسوة بالأبخرة اللامعة، تتوهج بالذهب وسط الليل.

نزل السحرة تتبعهم ضفادعهم المخلصة، وأثارت مشيتهم على رجل واحدة غبار الذهب في الجو الذهبي. لم يكن هناك أحد على الجزيرة. وفيما هم يقتربون من جبل ذهبي، على طول الحافة الذهبية لوهد، شاهد السحرة الذهب ينمو في الحقول والحدائق: وزّال ذهبي، برتقال ذهبي، كرمة مثقلة بعناقيد الذهب. وشاهدوا هياكل عظمية قديمة تصدر رنيناً إذا ضربت بالفؤوس والسيوف. كان الممر مليئاً بالعظام الجافة والخوذ والدروع والبنادق الصدئة. من يعرف منذ كم من الأعوام سقط الأسبان وقواتهم الفاتحة، وهم يطعنون بعضهم البعض على الممر الذي يقود إلى قمم إلدورادو؟

لم يعد السحرة مطلقاً.

أحياناً تحضر الريح تمتمات صلوات بعيدة وهي ليست من أرواح تعاني، أو من الغرقى، أو الذين تحطمت سفنهم أو الذين يندفعون وهم

يعانون من الجوع والبرد. على سواحل تشيلوي غير المسحورة، أولئك الذين يفهمون الريح يعرفون العويل الذي يأتي من السفينة الشبحية. يزعمون أنـه حكم على السحرة بأن يحرسـوا الذهـب وأن يراقبـوا بعضهـم بعضـاً. تـدور السفينة حول الجزيرة دون توقف ودون أن تغادر حلقتها الزبديــة. فقدت أشرعتها سيقانها البحرية. وحتى الريح نفسها لن تقترب من ذلك السـجن الكئيب الذي يصدر صريراً في الضباب.

السفن التي تجرؤ على الاقتراب تفرغ فجأة، وتبحر في فراغ، والبحـارة الحمقى يعومون عائدين إلى اليابسة بعد أن يتحولـوا إلى ألـواح خشـبية مـن الحطام.

نافذة على رجل ناجح

لا يستطيع أن ينظر إلى القمر دون أن يقيس المسافة.
لا يستطيع أن ينظر إلى شجرة دون أن يفكر بالحطب.
لا يستطيع أن ينظر إلى لوحة دون أن يحسب السعر.
لا يستطيع أن ينظر إلى قائمة طعام دون أن يحسب الحريرات.
لا يستطيع أن ينظر إلى إنسان دون أن يحسب الفائدة.
لا يستطيع أن ينظر إلى امرأة دون أن يحسب حساب المجازفة.

قصة المتطفلة

جئتِ منحدرةً في النهر ليلة زفافك. كانت البلدة كلها على الرصيف، بأفواه فاغرة، حين بزغت من الظلمة واقفة بانتصاب على الزبد. المياه الهائجة ضغطت صدارتك البيضاء على جسدك وأضاءت وجهك عمامة من اليراعات الحية.

باع لوتشو كابالغانتي ست أبقار من أجلك، وهي كل ما يملك، وذلك كي يشفي جمالك جسده المحزون من العزلة والذي أذله العمر.

في تلك الليلة أقمت حفلة، تحت مطر من الأرز، انقلبت المعدّية، وهكذا انطلقتما أنتما الاثنين، يطاردكما وداع الغيتارات والآلات الأخرى.

في الليلة التالية، عادت المعدّية. كنت تقفين. وكان لوتشو كابالغانتي ممدداً.

مات لوتشو دون أن يلمسك، حين انزلقت صدارتك البيضاء ببطء إلى الأسفل على طول جسمك وسقطت متكومة عند قدميك.

بينما كان يراقبك انفجر صدره.

صلوا والجسد مغطى لأنه كان أرجوانياً واللسان متدلياً. وفي أثناء السهر على جثة الميت، طعن شقيقا لوتشو بعضهما وهما يتقاتلان على الميراث: أنثى وحيدة، لم تُغزَ وأرملة.

مكثتِ في البلدة.

لم يفقد والد الشابين الميتين خطوة واحدة. من على الشاطئ، تبعك العجوز كابالغانتي بمنظاره التجسسي بينما كنت تجعلين الدوامات تغني، وفجراً، قلبت مجدافك العريض في المياه فانبعثت موسيقى صاخبة من الزبد. كانت أغنيتك ذات الفقاعات المائية أكثر قوة من جرس الكنيسة. رقص القارب، خرجت الأسماك، واستيقظ جميع الرجال.

وفي السوق، بعت سمك الصابوغة والحدوق مقابل المانغو، والأناناس، وزيت النخيل. لاحقك العجوز، وهو يعرج بسبب الروماتيزم، متجسساً على خطواتك. وحين استلقيت في أرجوحتك الشبكية، تجسس على أحلامك.

لم يستطع العجوز أن يأكل أو ينام. نزف من الغيرة، وكانت سحابة من البعوض تعضّه نهاراً وليلاً، ففقد قوّته. وحين لم يبق منه إلا حفنة من العظام الصامتة، دفنوه قرب أبنائه.

لم ترتد فستاناً من باريس، أو أساور، أو أقراطاً، أو حتى قصاصة من شعرك الأسود الطويل، المتوهج دائماً من حمامات جذور الموز.

وفي كل مرة تقتربين فيها من إسكولاستيكو، الذي كان مشلولاً، يقفز. هناك تنحدرين في شوارع البلدة، منيعة على الغبار والطين، ويشعر إسكولاستيكو أن القدر يدعوه، يصرخ به، ويأمره أن يدخل جسدك ويبقى هناك طوال جميع أيام أعوام حياته.

«ما الذي أفعله هنا، خارجها؟» عذّب إسكولاستيكو نفسه إلى أن شاهدك تعبرين في أحد الصباحات، فقفز عن كرسيه المدولب، ركض، ومات بعد أن دهسته دراجة.

حين ارتفع المد وصل النهر إلى صدره: يستطيع فورتناتو أن يغرق أي قارب بذراع واحدة، وبذراعين يستطيع أن يرفعه مرة أخرى. ملتهم لا

يشبع للسمك النيئ والنساء الطازجات: كـان شمشـوناً تبـاهى: «سـيفي ذو المقبض المشعر لا يصنع إلا أطفالاً ذكوراً.»

قضت عليه صاعقـة حـين كـان علـى وشـك أن يقـوم بحركتـه نحـوك. البرق، الذي خرج من سماء بلا غيوم، قبض على فورتناتو بينما كان سـيفه صلباً وذراعاه ممدودتين على حافة أرجوحة شـبكية حيـث كنـت تنـامين، لكنك واصلت نومك بطمأنينة، دون أن تعي أي شيء، ولم يبق من فورتناتو سوى عمود من الفحم بثلاثة أطراف ناتئة.

جاء إلى البلدة صحفي ومصور من مينـاء بوينتـابنتورا، جذبتـه شـهرتك التي انتشرت أنباؤها في جميع أنحاء الساحل الباسيفيكي.

كانت ليلة رقص. كنت تتلوين في الجـو في مركـز دائـرة مـن التصفيـق، كتفـاك هادئتـان، ردفـاك يتذبذبـان ويلتفـان، وقدمـاك تطنّـان وتطنّـان، كجناحي طائر طنان، وزبد تنورتك يرتفع إلى الأعلى في تموج فـوق فخذيـك الداكنين المتألقين. نجح الصحفي في أن يتمتم:

«يا له من حظ،

أن يكون المرء في العالم،

ويراها،»

وهذه كانت كلماته الأخيرة. جنّ الصحفـي. وفيمـا كـان يحـاول التقـاط صورتك، أنت أيتها المرأة المجنحـة، الأرض والسـماء، الجـذر والطـيران، تأتأ وارتجف إلى الأبد. صوّرَ تماثيل وجاءت ضبابية.

شعر الأب خوبينو بنسمة بحريةٍ فوجـدك في الجـوار. رمـى حفنـة مـن التراب أمامه، تفوه بصلاته ورسم إشارة الصليب، ورمى حفنة تراب أخرى خلفه. وحين رأى أنك تسيرين نحو الكنيسة، أغلق البـاب بقفلـين ودعمـه بقضيب حديدي وبآخر خشبي.

«يا أبتاه»، قلت.

تراجع مذعوراً. على المذبح، ضمّ الصليب.

ردَّدتِ إزاء الباب: «يا أبتاه.»

توسل الراهب، متعرقاً بغزارة، محترقاً من نيران هلاكه الروحي: «لا تتخل عني يا إلهي!»

جئت لكي تعترفي. غادرتِ. كنت تذرفين دموعاً من النعناع.

في اليوم التالي، غطى الأب خوبينو نفسه بطين مبارك ورمى نفسه في النهر، في المنعطف العميق، مقيداً إلى يسوع.

حالاً انتشلوا الاثنين. كان الكاهن غريقاً ويسوع الصغير، الذي تعرق من قبل، ونزف، وطرفت عيناه لم يعد يفعل ذلك، ولم يعد يخرج الماء أو الدم، أو يجترح أية معجزات.

تنظر النساء إليك دائماً بجبين مغضّن. منذ أن جئت إلى البلدة، لم يسقط مطر وقلّ عملُ الرجال فيما ازداد موتهم. رأى أحدهم مهاميز على صندلك وشاهدك آخرٌ في سحابة من الكبريت. كان علنياً وواضحاً أن النهر تموّج وتدفق حيث سرتِ، وتبعتك الأسماك بجنون ملوحة بزعانفها، وعرف البشر أن ثعباناً يزورك كل ليلة، يزحف نحو أرجوحتك الشبكية من السقف المغطى بسعف النخيل، وينفّذ أوامرك.

البلدة برمتها شجبتك، كساحرة مقيتة تفضل الضحك على الصلاة، بسبب فنون سحرك وإغوائك، أو بسبب جريمة جمالك الذي لا يمكن الصفح عنه.

وفي إحدى الليالي غادرتِ في قاربك، واقفة على الزبد. تلاشيت في الضباب. لم يشاهدك أحد سواي. كنتُ طفلاً ولم تلاحظي ذلك. ولا أزال أراك إلى الآن.

نافذة على إلهة البحر

تعيش إيمانيا في أعماق المياه. هناك تتلقى التقدمات. في يوم مهرجانها، يغني صيادو باهيا مدائح للإلهة المغازلـة والجشـعة، ومـن قواربهـم يرمـون هدايا متملقة.

حين تحب الهدايا، تمن عليهم بحمايتها. حين ترفض الأزهـار البيضـاء والمرايا والمراوح والأمشاط والعطور والحلويات وتعيدها إلى الشواطئ الرمليـة، يرتجف الصيادون: سيأتي عـام سـيئ، أو عـام تقـل فيـه الأسمـاك وتكـثر الأخطار، وسيغرق أكثر من شخص في أعالي البحار وهكذا تسـتطيع إيمانيـا أن تهدئ غضبها الأنثوي وجوعها.

نافذة على الجسد

تقول الكنيسة : *الجسد خطيئة .*

يقول العلم : *الجسد آلة .*

تقول الإعلانات : *الجسد مشروع تجاري.*

يقول الجسد : *أنا مهرجان.*

قصة الرجل
الذي أراد أن يحبل

النساء؟ سلالة أدنى كالسود، والفقراء، والمجانين. وهن غير ملائمات للحرية كالأطفال. مقدر عليهن أن يبكين ويصرخن، أن يستغبن جيرانهن، وأن يغيرن رأيهن وتسريحاتهن يومياً. في السرير وفي المطبخ، يمنحن المتعة أحياناً. وفي أي مكان آخر لا يثرن إلا القرف.

كان السيد سيرافيكو رجلاً بأفكار مستقيمة. ولكن الآن، في غسق حياته، أزعجت سحابة سوداء أفكاره. شيء ما بخصوص جنس حواء لم يولّد الاحتقار أو الشفقة. كان صعباً الاعتراف بأنه يحسدهن: يمكن أن يُنجبن، لكنه عاجز عن ذلك، يمكن أن يصبحن اثنين، ولا يستطيع أن يكون إلا واحداً. لم يتذمر السيد سيرافيكو مطلقاً من الحياة، ذلك أنها منحته الكثير من المرح والثروة، لكنه لم يحصل مطلقاً على طفل، فكره امتيازات البشر الآخرين. وقرر أنه لن يغادر الدنيا قبل أن يجرب فعل الإنجاب فأقسم: «سوف أنجب طفلاً، وإذا لم يحدث هذا، سأنجب طفلة.»

في ذلك اليوم نفسه أُخِذَ قَسَمٌ آخر في الغابة القريبة. سقط نمرٌ في مصيدة نصبها الصيادون. توسّل النمر طالباً المساعدة من قرد صغير يتدلى على غصن، يتأرجح جيئة وذهاباً. وعده النمر وهو يرسل قبلاً مع الهواء:

«سأكون عبداً لك.»

حرره القرد وانطلق الاثنان. ذهب النمر أولاً، فتح ممراً وكنس الأرض التي يسير عليها القرد. حين يجلس القرد ليستريح، يهوّي له النمر بورقة موز.

ذهب السيد سيرافيكو إلى مخزن السيدة خوانا أوبانالا، وضع كومة من النقود عند قدميها وحدد أنه لا يريد زوجة، أو زوجاً أو عشيقة تسافر في البحر، أو الروح القدس.

كانت خوانا أوبانلا ساحرة كاماخواني. دون أن تستخدم المحار أو أوراق اللعب أو الكرات الكريستالية تستطيع أن تتنبأ بالأوقات الجيدة، وتؤخر من قدوم الأوقات السيئة، وتجعل المستحيل ممكناً.

حكّت الساحرة رأسها وتساءلت. بقيت مستغرقة، تفكر بالاحتمالات، إلى أن تذكرت أن الأطفال يصنعون من المواد نفسها كالأحلام والكوابيس. ثم جهزت الجرعة المؤلفة من سبع ملاعق مليئة من الكربون، سبع عشرة من الهيدروجين، واحدة من النتروجين، وثلاث من الأوكسجين.

كان النمر خادماً مخلصاً طوال النهار. ولكن حين خيم الليل، وضع الغادر براثنه على كتف القرد لا كي يعانقه، وإنما ليوقعه أرضاً. ضرب نفسه على الصدر وقال: «لاحظ أننا معشر النمور لا نلتهم القمر لأننا نشفق على الليل فحسب». أجاب القرد: «لن ينفعك التهامك للحمي المريض المصاب بالملاريا، والسفلس، والإيدز.»

«سنموت جميعاً من شيء ما،» فكر النمر بينما انزلق القرد هارباً واختفى بقفزة واحدة.

مرت تسعة أقمار.

لم يحمل السيد سيرافيكو ابناً أو ابنة في حوضه، لكنه ملئ بصخب مائتين وسبعين ليلة من الاضطراب الذي لم يهدأ. حالما وضع رأسه على المخدة وأغمض عينيه، قذفته أحلامه في إجهاد لا ينتهي:

جرى طوال الليل وثمة قطار مجنون في إثره،

أو تسلق عموداً من الصابون بينما في الأسفل تماسيح تفتح فكوكها

أو أمضى الليل كله يمارس الجنس مع أحد عشر ألف عذراء من حارسات سيدة كاريداد ديل كوبري: واحدة بعد أخرى تسلقن على ظهره وقمن برقصة البطن، ثم أدرنه ورمين أنفسهن عاريات بين ذراعيه.

استيقظ في حالة يرثى لها، جر نفسه إلى الحمام وغسل وجهه بالماء البارد، ودبَّ فيه الهلع حين خرجت كلمات العظاءات من الصنبور بدلاً من الماء.

حين أضاء القمر التاسع الدغل، كان القرد والنمر متسخين ومنهكين، لكن الصياد الجائع لم يوقف بحثه عن عشائه الهارب. تحت خطواته المتعبة صرَّتْ الأوراق الجافة. ولم تتوقف أذناه عن الطنين، وهما تتوقعان القفزة المهلكة. قدم زئيره الأجش لعاباً للهارب لجعله جيداً ومبللاً، لساناً ليحصره في زاوية، أسناناً لطحنه إلى أشلاء. وهكذا مرت الأيام، زمن ألوان كثيرة، وهكذا مرت الليالي، زمن عطور كثيرة.

والآن تواجه السيد سيرافيكو مشكلتان: لم ينجب بعد وعانى من لعنة أحلام متواصلة.

سافر إلى المدينة، عاقداً آماله على العلم. دفع ضعف السعر إلى الأكثر سمواً.

أصغى الطبيب بونفين إلى قصته دون أن يرفع حاجبه. شرح السيد سيرافيكو أنه قرر أن يحبل من أحشائه هو، دون امرأة، بالأمير الذي سيتوج نسبه. ووعد أن يمنح كل ما يملك مقابل سر الحمل الذكوري. حذره الطبيب بونفين: «إن الإنجاب يؤذي.»

وضع قمعاً في فمه وسدادة في إسته. جعل المريض يستلقي وأفرغ في القمع زجاجة كاملة من زيت الخروع.

ثم أراد السيد سيرافيكو أن يعرف ما يتناوله لكي يتخلص من الكوابيس التي تعذبه. سأله الطبيب بونفين إن كان ينام وذراعاه فوق الأغطية أو يتغطى أو إن كان ينام ويداه مفتوحتان أم مضمومتان.

لم يغمض السيد سيرافيكو أبداً عينيه مرة أخرى بقية حياته، لكنه غادر عيادة الطبيب في ذلك الأصيل في حالة متقدمة من الحمل.

على مسافة معقولة من العدو، استلقى القرد ليغفو قليلاً على قمة شجرة غواسيمو. كان غافياً حين سمع أنين إنسان فنظر إلى الأسفل: رجل منتفخ يجلس في الأسفل، بطنه الكبير يقاوم على الأرض. أنَّ دون سيرافيكو وتعرق ناراً وجليداً.

انزلق القرد إلى الأرض وتأمل، بصمت، المشهد.

حين طارت السدادة وانفجر البالون، هزَّ العالم رعدٌ أقوى من جميع الرعود، فقفز القرد.

نجح السيد سيرافيكو، الذي نفَّس واستُنفِدَ، في رؤيته. مستحماً بالدموع، قال وهو يصدر أنيناً: «إنه دميم قليلاً، لكن من يكترث...!!؟»

نافذة على الولادة

تعرف المرأة الحبلى متى وكيف. تعرف متى مما يقوله لها القمر وجسدها. وتعرف مما تقوله أحلامها. إذا حلمت بالخيوط أو الآنية، ستنجب فتاة. إذا حلمت بالمعدن، القبعات، أو البيض، ستنجب ابناً.

عندئذ تجلس، تنزل شعرها، تتناول جرعة من الشراب، وتنجب وهي على ركبتيها.

يدا الطفل الصغيرتان تلمسان معزقاً، فأساً، ومنجلاً. بسخام من المطبخ تعلّم الأم مركز رأسه.

يترك حبل السرة على قمة أعلى شجرة.

هكذا يتم الإنجاب في تشامولا.

قصة الذي منح بشكل مفرط، أعماله العظيمة، ومصيره المدهش

كمن الفضولي على التلال ليتجسس عليه من بعيد. كان إنكارناثيون يملك رأساً ضخماً بأذنين ناتئتين كالمراوح وشعراً نارياً، ولكن كان كل ما يمكن أن يرى من بعيد هو الإبرة التي يجرها وراءه كذيل طويل: في الأيام الحارة يحممها إنكارناثيون في النهر ثم يخرجها إلى الشاطئ ليجففها تحت الشمس، وفي الليالي الباردة يستخدمها كلفحة.

قال الناس إن تلك الآلة الكريهة ناتجة عن العاطفة الممنوعة بين الأب وابنته، وقالوا إنه استخدمها ليقرع الأبواب، ليضرب الأعمدة، وليشبع شبقه الذي لا يهدأ. حين يكون في حرارة الربيع، يجلس ست نساء على قضيبه المتصلب ويلعب معهن لعبة الأرجوحة. وفيما هو نائم في إحدى الليالي، رأى الحيوان الشبق حلماً إيروتيكياً، فارتفعت صاريته وفتحت ثقباً في آجر السقف.

قال الناس، عرف الناس. ولم يقترب منه أحد بتاتاً.

خيم الليل وتجول شخص حزين عبر الحقول. كان إنكارناثيون يسير وحيداً كما يفعل دوماً، في إحدى حالات عزلته الأبدية، حين باغتته وابلٌ من المطر الغزير.

لم يلمح شجرة واحدة في ذلك الخلاء الواسع.

وفيما كان المطر يضربــه، وأسـنانه تصطـك مـن الـبرد، لمح إنكارنـاثيون صخرة عارية ارتفعت فوق الخضرة. أضاءتها صاعقة: لها سقف، وفي سفحها رواق وزريبة.

أدخلته الشقيقات الثلاث وأغلقن البـاب. فكّتْ إحداهن ذلك الشيء الذي حول عنقه، نزعت ثيابه المبللة، ولفّته بغطـاء. حرّكتْ أخرى النـار ودعته إلى التمدد على جلد خروف قـرب الموقـد. أحضرت الثالثـة لشفتيه حساء المونامونـا المتبـل بفلفـل حـار، قطائف التاميل المدهونـة بالعســل العذري، عجة مصنوعة من بيض ذكور المـاعز مقلية بزيـت الفـول. شـرب إنكارناثيون خمرة ذرة ساخنة مخلوطة بقرنـيٍ وعـل مطحونـين، وأصغـى لتوراة القدس: النساء الورعات قرأن لــه جمـلاً تعلّـم أن قبلـة شـفتيك همـا أفضل من الخمرة.

في الخارج توقف المطر.

طلع الفجر على الأفق الجبلي وشـاهد والـد العذراوات الثـلاث، الـذي جاء من بعيد ممتطياً حصاناً، شاهد دماً في السماء.

ترجل، كومّ الأشياء التي اشتراها في البلدة في الرواق، ونظر فوق الحائط الحجري للزريبة. بناتـه لم يخرجـن الحيوانـات. في قـن الدجـاج، كـانت الدجاجات تنام علي بيضها ولم تُقدم لها حبوب كي تأكلها.

نذير شر مرعب. جمع الأب جيرانه البعيدين. جيش يتلألأ بالمنـاجل، تقدم على الهضبة نحو المنزل الذي على الجرف.

صمت.

رفس الأب الباب وفتحه.

لم يسمع أحد الصوت، لم يستيقظ أحد من ضوء النهار العنيـف. كـانوا ينامون قرب الجمار، عراة تحت الأغطية، وبدون أن يرف لهم جفن تابعوا نومهم. الساتير، النائم كذلك، والعاري، كان يتدلى مـن السـقف، يتـأرجح بنعومة، وأفعوانــه مربـوط إلى رافـدة خشـبية. داس الأب بقـوة، المنجـل في

يده، قفز على المخلوق المخيف الذي ألحق العار ببناته. ولكن قبل أن يلمسه الفولاذ تلاشى إنكارناثيون في نفخة دخان وتحول إلى حفنة من غبار الكبريت على الأرضية المتسخة.

في قداس عيد الشكر احتفل الكاهن بنهاية كابوس جميع المسيحيين الطيبين. كان إنكارناثيون حلم شيطان، وتلاشى في الجو حين استيقظ الشيطان.

مر الفصل الممطر، وكذلك الفصل الجاف، وقت الطين، ووقت الغبار. وفي وادي نهر بوتي ولد ثلاثة أطفال، برؤوس حمراء كبيرة وأجساد عناكب. كان لكل منهم ذيل طويل بشكل لا يصدق، خلطت القابلة بينها وبين حبل السرة.

نافذة على الخوف

الجوع يتغذى على الخوف. خوف الصمت يدوي في الشوارع.
الخوف يهدد:

إذا أحببت، تصاب بالإيدز.

إذا دخنت، تصاب بالسرطان.

إذا تنفست، تتلوث.

إذا شربت، تحصل لك حوادث.

إذا أكلت، ترتفع فيك نسبة الكولسترول.

إذا عَبَّرْتَ عن نفسك، تُسرَّح.

إذا سرتَ، تُسرق.

إذا فكرت، تقلق.

إذا شككت، تجن.

إذا شعرت، تعاني من الوحدة.

قصة الكنز الذي عثر عليه وكيف تحققت لعنته

تحت شمس تجلدُ من شدّة حرارتها، أبحر المؤرخ في نهر كاروني بحثاً عن صياد الكنز.

حين عثر عليه، قدم له وجبة وحصل على قصة مقابلها.

قبّل السيد إسبيريتو موراليس الكوب فاختفي الرم. سكب لنفسه كوباً آخر وشربا نخباً:

«نخب الحجّة.»

أسعده طبق الذرة – ذرة رقيقة مكسوة بجبن الماعز، ذرة ناضجة تعانق لحم الخنزير – الذي تبخر برفة جفن.

«هل تدخن؟» سأل السيد إسبيريتو. هذه هي طريقته في طلب التبغ.

في مطعم آل إل بوين غستو، في ظل سقف من العيدان وسعف النخيل، انتظر المؤرخ. قضم شيئاً، تناول جرعة أو اثنتين، وانتظر. وصلت يخنة الدجاج، صعد منها البخار وفاحت رائحة الكزبرة، وغاص السيد اسبيريتو في الإناء الخزفي الأزرق ذي الحواف البيضاء.

حالما انتهت اليخنة، وقبل أن يملأ السمك المقلي بالثوم فمَ السيد اسبيريتو، تلقى المؤرخ كلماته الأولى. وعرف أن الكنز يحتوي على ثروة ثمانية وعشرين معبداً. كان العام 1817، زمن تمرد، زمن نهب، وحمل

أكثر من خمسين بغلاً الذهب والمجوهرات من الكنائس إلى دير الآباء التبشيريين الكاتالانيين في سان سيرافين. وهناك دفن الكاهن إنوثنثيو كنز الكنوز في مكان سري.

«في إحدى الليالي، وفي حفلة أقيمت بعيداً عن هنا، عرفت بالأمر. أخبرني بذلك حفيد حفيد راهب. ولا تمزح مع نفسك، لم أحصل على ذلك مجاناً.»

طلب حفيد الحفيد ثمانية وعشرين بالمائة، وبدا هذا عادلاً لدون اسبيريتو.

وصل السمك.

وفيما بعد: «هل تدخن؟»

أخذ دون اسبيريتو بعض السحبات وتبعها بكأس من الرم.

تحدث. أخذه صياد إلى أطلال البعثة التبشيرية. لم يكن هناك أحد. كان شبح الأب إنوثنثيو يعيش في شجرة سيبة، وكان البشر يخشونه. وكان الصياد يعرف الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يتحدث مع الرجل الميت.

دور الماعز. طبق من لحم الماعز بحليب جوز الهند. لم يترك دون اسبيريتو رقاقة. ومن ما يرافق الصحن لم يترك حبة أرز.

تابع كلامه: «كان السيد ماتشوكا دي غواسيباتي يفهم كلمات الراهب. طلب مني ألا أحضر سكيناً أو مسدساً لأن الشبح هو شديد النرفزة. وانطلقنا.»

رمى دون اسبيريتو نظرة متوسلة نحو المطبخ. هز المؤرخ رأسه، هدأه، وطلب له المزيد من الرم.

طرد البطل بضع ذبابات وعدّل كرسيه: «أتعرف ماذا؟ طلب السيد ماتشوكا خمسة وعشرين بالمائة.»

وشرح، محاولاً أن يقنع المؤرخ أو يقنع نفسه: «لم يكن هناك مترجم آخر.»

واختتم: «بدا الأمر عادلاً.»

في منتصف الليل، قدم الشبح شهادة.

ومض ضوء بين أغصان الشجرة الضخمة. ترك قمة الشجرة الكثير الورق وقفز إلى الأسفل. قفز المتطفلون إلى الخلف. ثم تريث الضوء، تراجع، واختبأ في الشجرة.

متلصصاً من فوق كتف اسبيريتو، الذي استخدمه كدرع، توسل السيد ماتشوكا: «من فضلك ابق أيها الأب.»

وحالاً اتكأ شكل أبيض طويل على الجذع وقال: «يمكن.»

تحدث الراهب إنوثنثيو بصوت منهك من كونه ميتاً فترة طويلة، لكنه بدا طبيعياً.

قدم السيد ماتشوكا الاقتراح.

«يمكن»، قال الضوء الساقط على الأرض.

أراد السيد ماتشوكا أن يثبته بدبوس لكن الكاهن كرر: «يمكن.»

وعرض السيد اسبيريتو: «من أجل خلاصك، أيتها الروح الحزينة المعذبة، أقدم سبعة قداديس مع صلوات لراحة نفس الميت، أربعة عشر كفناً، وإحدى وعشرين صلاة مسبحة أصليها كل يوم إلى أن يعود السلام إلى روحك.»

عندئذ شعّ الضوء واختفى. عبثاً ضرب السيد اسبيريتو على جذع شجرة السيبة ببراجمه: «هل أنت هنا يا أب أنوثنثيو؟»

بدأت أطباق جديدة يصعد منها البخار تصل إلى المائدة، لكن السيد اسبيريتو نجح في إخراج القصة. في إحدى الليالي، وبعد كثير من الذهاب والإياب، عاود الشبح ظهوره وبأصابع بيضاء رسم بعض العلامات البخارية في الظلام. ترجم السيد ماتشوكا: طلب الكاهن خمسين بالمائة من كل الدخل الذي يأتي من البضائع المدفونة، حرة من الضرائب ونظيفة من الغبار والقش. في النهاية استقر على أربعين بالمائة.

سأله المؤرخ: «وهل تظن أن ذلك كان عادلاً؟»

ترك صياد الكنز ملعقته المليئة بالفاصولياء الساخنة متدلية في الجو: «لا تمزح معي. هل سبق وأبرمت صفقة مع ميت؟»

حفر السيد اسبيريتو في شرك كثير العصارة من لحم البقر المقطّع المستحم بالطماطم، والفلفل، والبيض، وبزجاجة طازجة من الرم هبطت بين الصحون.

في الساعة المحددة، عبروا الحفرة حيث دفنت عظام كهنة الدير. حين تحرك الشبح لم يكن هناك صوت لأغلال مجرورة. كان يطير.

«اتبعني يا ابني»، طلب رافعاً مشعلاً من الزفت، وتبعه الأربعة: حفيد الحفيد، الصياد، السيد ماتشوكا والسيد اسبيريتو.

الأب إنوثينثيو، الذي كان يرتدي لمة شعر مستعارة لكي يخفي شيخوخته، والتي هي للعذراء الكرملية، مر عبر الجدران وكأنها ضباب، وفتحها لحاشيته.

اتجهوا مباشرة إلى خلفية الدير المهدم، ثم إلى أعماقه. وفي نهاية مغلقة، في المكان الوحيد غير المبلل بالصخور المتعرقة، قال الراهب: «هنا.»

في أثناء النبش كان الجميع موجودين.

يراقبون.

لم يساعد أحد. قام السيد اسبيريتو بعملية التنقيب والرفش لوحده. وحين وصل إلى مستوى رأسه، انكسر رفشه على الصندوق.

لم يكن هناك مجوهرات. كان الصندوق مليئاً بالقطع النقدية: أونزات ذهبية، ربية، دولارات أسبانية، ودبلونات، طالن من بحر إيجه ودراهم من فارس، قطع نقدية بطليموسية من فراعنة مصر ودراهم من خليفة قرطبة، وحدة وزن من صقلية ودنانير من روما، فلورين من فلورنسة، دوقيات من أراغون وعملة من قشتالة.

مضغ السيد اسبيريتو قطعاً نقدية ذهبية مصنوعة من لسان الحمل المهروس.

«هل تعرف كم أخذت؟» هذا، قال وهو يخرج تمثالاً صغيراً من ملابسه المتخلقة.

قال: «لم يرغب به أحد.»

التقطه المؤرخ، نظر إليه، فنظر إلى القاص: قديسة أنثى منقوشة على خشب الجاكارندا، أكلته الديدان، دميم، دون أعين، مع ذلك يحدق نوعاً ما.

قال المؤرخ: «لم أفهم، اعذرني.»

مص السيد اسبيريتو أسنانه، مركزاً على متعته الخاصة.

«كثير من العمل، ومن أجل ماذا؟ لم أفهم.»

رفع السيد اسبيرتو ضلعاً من لحم الخنزير، مشيراً إلى صدر المؤرخ: «لكن اسمع أيها الفتى،» قال وتابع تناول الطعام. بينما بقي المؤرخ صامتاً.

بعد برهة رفع السيد اسبيريتو عصا طبل وقال: «بحثت عن الكنز وعثرت عليه. أنا.»

«نعم. ولكن على ماذا حصلت؟»

يلعق المكتشف أصابعه ويقول: «حالما تحصل عليه فأنت حصلت عليه.»

حيّته المنطقة كلها. صافح أيدياً كثيرة إلى أن أصبحت يده خشنة وقاطعة كسكين قديمة.

لكن الحفلة لم تستمر طويلاً. تابع مكتشف الكنز المنتصر حياته في بؤس كامل، يستجدي الحسنات. شجبته مفوضية السيدات لتحسين نهر كاروني وجمعية حماية الحيوانات والفقراء بسبب جشعه، وحاكمه البابا في روما بتهمة السرقة. انتشرت الشبهة بسرعة في مختلف أرجاء المنطقة بأن

هذا المليونير دفن مرة أخرى الصندوق، الذي يطفح بالكنز، في مكان لا يعرفه أحد.

حك كلب ضال ظهره في مدخل المطعم ودخل ليستلقي قرب الطاولة.

قبل السيد اسبيريتو صينية الفاكهة. عرّت سكينه ثمرة أناناس ناضجة.

ألح المؤرخ: «أمر آخر لا أفهمه هو لماذا لم يبحثوا عنه بأنفسهم؟»

عندها جازف بإصبعين والتقط حبة عنب من الصينية التي يحميها السيد اسبيريتو بذراعيه.

«هم، أعني. كانوا يعرفون. لماذا انتظروا طويلاً؟ لماذا كان عليك أن تأتي؟»

حك السيد اسبيريتو لحيته التي تركت عدة أيام لتنمو على ذقن ملوثة بعصارة الفاكهة.

«مغفّلون.»

وأنهى البلع، وقال وهو يهز رأسه: «لقد آمنوا باللعنة.»

عالج ثمرة مشملة، وبصق بضعة بذور.

«إن الحفر عن الكنز يجلب المصائب. هذا ما ظنوه.»

ضحك بشكل متواصل، وزعم وهو يسعل: «انظر، بعض الناس يؤمنون بالخرافات، أليسَ هذا صحيحاً؟»

أراد المؤرخ أن يدخن، لكن السيد اسبيريتو نفخ سيجارته الأخيرة.

عذبت بعوضة المؤرخ ولسعت أذنه برمحها.

أحد ما يصفر.

كان الكلب الذي يقعي على الأرض يتابع بنظراته حركة الدخان، حركة البعوضة، والصفير.

نافذة على الإرث

كانت بولا بونيا تصوغ الأطفال والطين. كانت خزّافة ذات يد ثابتة ومدرّسة في حقول مالدونادو، وفي فصول الصيف تبيع الحلي والشكولاتة الحارة والفطائر للسياح.

تبنّت بولا طفلاً أسود ولد في البؤس، واحداً من كثيرين يصلون إلى العالم دون رغيف خبز تحت أذرعهم، وربّته كابن لها.

حين ماتت، كان رجلاً ناضجاً له تجارة. قال له أقرباء بولا: «ادخل المنزل وخذ ما تشاء.»

خرج حاملاً صورتها تحت ذراعه وغاب من مدى النظر في أسفل الطريق.

قصة علاج البؤس

كان الديك الأخير قد تحول مسبقاً إلى حساء وكانت الدجاجات يحفرن الأرض بحثاً عن الحبوب، فلم يعثرن إلا على القمامة.

كانت البلدة على أرجلها الأخيرة. لم يكن هناك قطعة نقد واحدة تدفع للتجار الذين في إحدى المرات عبروا آخذين معهم، كدفعةٍ، الأشياء الوحيدة التي كانت هناك: تركوا النساء بشعور مقصوصة والرجال بكلية واحدة.

انطلق فيليثيندو، في منتصف الليل، كي يصطاد شيئاً يهدئ جوعه. كان في طريقه إلى النهر حين، فجأة، قفز الدغل واصطاده. سدّت طريقه مجسّات شوكية وشنّت الهجوم. دافع فيليثيندو عن نفسه ملوّحاً منجله، لكنه كان يقطع أغصاناً تلتحم من جديد والأغصان التي يقذفها إلى الخلف كانت تعود. بدأ الدغل يأكله حين، فجأة، فتحت ألسنة لهب ممراً فيه.

شق اللهب الدغل إلى نصفين واندفع، دون توقف، نحو الأفق. هناك، بعيداً جداً، تحول إلى قوس قزح. دون حراك، بين العلّيق الساقط، شاهد فيليثيندو قوس قزح يعرض ذيله الطويل الملوّن عبر سواد السماء، وأغشي عليه.

في الليلة التالية، كان فيليثيندو يسير نحو بار سيرهوسيس، الذي كان حانوت تورتيا في الأيام القديمة حين كانت المدينة لا تزال تأكل، عندما ظهر غريب من الوهد وبدأ يسير إلى جانبه.

توهج الرجل بتألق لم يشاهد من قبل: ملابس من ذهب خالص وقبعة ضخمة، تحف بها المجوهرات، تغطي وجهه. كان يسير دون أن يرى، ولكن بمشية ثابتة، ورغم الظلمة استطاع فيليثيندو أن يلاحظ أن أحد القدمين فيه بوط ومهماز، والآخر كان جمجمة حصان.

لم يتبادلا كلمات. في منتصف الطريق هناك، توقف المسافر كي يدخن. لم يعرض عليه سيجارة.

فوجئ فيليثيندو من أسلوبه: أخرج الرجل دولاراً فضياً من أذنه وبظفر إبهامه أشعل النار. حين أشعل سيجارته، توهجت ملابسه كالجمر، من فردة البوط الوحيدة إلى قبعتة المرصعة بالمجوهرات.

كان فيليثيندو سيطلب منه ديناً صغيراً ولكن في تلك اللحظة صاح ديك من أحد المنازل. كان ديك البلدة الأخير، ديك التضحية، يصيح من بين الموتى. كان يصيح في الأوقات الخطأ مستمتعاً بإزعاج الآخرين. وحالما شق الديك الليل بصياحه، تلاشى السيد الرشيق في الدغل، قاذفاً ألسنة اللهب بين الأوراق.

ثم مر وقت قليل دون زيارة. عبثاً تجول فيليثيندو في الأدغال بحثاً عن أثر لشرارات في الجو. لم يستطع أن ينام أو يصطاد أو يفعل أي شيء: سرقت النار الملعونة نشاطه.

حين عاد الوهج، كان وهجاً أنثوياً لسيدة من قمة الهضبة. غطت نفسها بمظلة حريرية سوداء، سدت أشعة القمر الباردة، وخبأت وجهها قطعة قماش مخرم سوداء. رفعها النسيم قليلاً وقدمت شفتيها فقبلهما فيليثيندو.

«شكراً لك»، قالت سيدة الليل، ذات الصوت الأجش، التي عوقبت حنجرتها من حياة قاسية، ثم كررت: «شكراً لك.»

ذلك الصوت الذي يشبه صوت ورق السنفرة انفجر بالعاطفة. كانت شيطاناً مسكيناً محكوماً عليه أن يخيف البشر، وكان فيليثيندو الإنسان المسكين الوحيد الذي لم يخف منه أو يلعنه أو يشجبه، أو يقدم روحه مقابل سلطة أو ثروة.

«جئت لأحضر لك هدية ستنجيك من البؤس،» أعلن الصوت الأجش من وراء الحجاب الأسود.

همست في أذنه: «ثمة نوع مختلف من الحياة في مكان ما. هذا المكان هو هنا.»

قال فيليثيندو: «أنا فقير.»

«كلا أيها الصديق، الثروة تحيط بك.»

احتواها قفازها الأسود كلها: «قل أيها الصديق، ماذا ترى؟»

نظر فيليثيندو حوله إلى الأرض الحصوية الجدباء وقال: «أرى أحجاراً.»

في اليوم التالي ملأ فيليثيندو حقيبة بالأحجار، علقها على كتفه وانطلق إلى مدينة أواهاكا.

سار عدة أيام، محدودباً من الثقل. وفي سوق في أطراف المدينة، جلس على الأرض وبدأ يصيح على مبيعاته.

«أحجار! أحجار!»

لم يشتر أحد.

حين خيم الليل، استسلم. جمع أحجاره، حملها على كتفه، وغادر السوق، الذي فرغ لتوه يائساً.

بدأ طريق العودة. كانت برودة الليل قارسة وارتجف فيليثيندو من

البرد والوحدة. على حافة المدينة شاهد في منتصف الطريق امرأة عجوزاً ملتفة بشالها، تأكل التورتيا، غير مبالية بالسيارات التي على وشك أن تدهسها. في ضوء القمر، كان كل ما يستطيع أن يراه هو عمل فمها. قدمت العجوز لفيليثيندو بضعة تورتيات، وقناعاً: «غط وجهك، إنه الأكثر انكشافاً.»

تـابع فيليثينـدو المقنّـع طريقـه، إلى أن شـاهد بعـد مسـير طويـل، عـبر الريـف، نـاراً بـين الصخـور علـى ظهـر رابيـة. وضـع كيسـه علـى الأرض وهناك، قرب ألسنة اللهب، انهار نائماً.

لم ير فيليثيندو الرجـال الآخريـن الذيـن ينـامون في الـدفء. اسـتيقظوا قبله، مع الضوء الأول، وحين شاهدوه صاحوا: «الشيطان!» وركضوا بعيداً.

جعلـه الصيـاح يقفـز. شـاهد فيليثينـدو رجـالاً يهربـون في سـحابة مـن الغبار، وفي مرعى قريب شاهد بعض البغال ترعى.

ترك اللصوص سبائك الذهب التي سرقوها من البنك في خروج البغال.

وصل فيليثيندو إلى البلدة في موكب مهيب. قادت البغال كرنفال الثروة.

لم يكن هناك أحد. هـرب الجميـع مرعوبـين حتـى زوجـة فيليثينـدو، المشهورة بأنها وغدة ونذلة، صرخت حين رأته وركضت لتعثر على صليب.

حـاول فيليثينـدو أن يحـك القنـاع بأظـافره، استخدم المـاء والكحـول، المنظفات وسيف الألمنيوم.

وإلى هذا اليوم يريد أن ينزع القناع الذي تظهره له المرآة كل يوم.

لكنه يعزّي نفسه عارفاً أن جميـع سـكان العـالم، تقريبـاً، يعـانون مـن المشكلة نفسها.

نافذة على الأقنعة

تظاهر إل ناتو غارثيا بالجنون في أستراليا.

كان الغروب وشيكاً، وكان يراقب الشمس تنحدر فوق مدينة ملبورن بينما كانت ترتفع فوق مونتفيديو، وقرر أن يجن.

اعتراه بطاح وتهيؤات. قاتل ضد أعداء لامرئيين، موجهاً اللكمات في الجو، وأمضى أياماً وليالي جالساً إزاء حائط دون أن يغمض عينيه. رفض أن يتحدث لأن عفريت الجنون دخل من فمه المفتوح. رفض أن ينام خوفاً من أن يموت من الجنون في أثناء الليل. أوقف الحبوب، والحقن، والصدمات الكهربائية. وأخيراً، اقتنع أربعة أطباء من أستراليا أنه حالته لا تُعالج.

هكذا حصل إل ناتو على بطاقة إلى الوطن وعلى منحة جيدة يستطيع أن يعيش منها دون أن يعمل بقية حياته. نظر في المرآة لمرة أخيرة في منزله بملبورن وودّع الرجل المجنون وصعد إلى الطائرة.

وصل إلى مدينة حنينه.

بحث في مونتيفيديو عن منزل طفولته وكان في مكانه سوبرماركت. الحقل الفارغ الذي مارس فيه الجنس للمرة الأولى أصبح مكاناً لصف السيارات. بحث عن أصدقائه. لقد ذهبوا. تابع البحث، ولم يستطع أن يجد نفسه في أي مكان، وهنا دخل الشك إلى ذهنه: «من الذي بقي هناك في ملبورن؟ المجنون أم أنا؟»

مرة كل عام، مرة فقط، يتعرف إل ناتو على نفسه في المرآة. يجيء وقت الكرنفال بطبوله الراعدة ويتعرف إل ناتو على نفسه. وهذا يحدث حين تريه المرآة المغنّي الجوال: أنف مهرج، ابتسامة كبيرة مرسومة فوق شفتيه، القمر بين حاجبيه، وثمة نجوم منثورة فوق وجهه كله.

قصة من الحرب

«انظر يا بريميرو.»

«تحدثي يا سيغوندا.»

سلّمته التلسكوب. من مكان مرتفع، تجسس لورد توكيومان على حشرة مشوّهة ضائعة في الاتساع الأحمر الشاسع. نمت الحشرة، وكشف التلسكوب حالاً رجلاً صغيراً يقترب، يوحي بالمصيبة.

اكتشف السيد بريميرو أن ابنته دولوريس تقف في الأسفل، وسط الوادي، منتظرة الرجل المشوّه.

جاء كانتاليثيو غالانتي سيراً على الأقدام من سلسلة الجبال الزرقاء. لم ينزع صمبريرته، ولم يرم عقب السيجارة القديم الذي يتدلى بين شفتيه. نظرت دولوريس إلى وجهه. ليس هو، لأنها كانت جميلة أصيبت عيناه بالأذى من النظر إليها. نظر كانتاليثيو إلى الأرض، ولكن تحت جفنيه انزلقت نظرته إلى جانب وفحصت طول ظل المرأة، كاحليها، وميتاً ليشاهد أكثر، تسلقت نظرته الساقين اللتين خططهما النسيم تحت التنورة الكتّانية.

لم يتلامسا حتى بالكلمات.

ضحك السيد بريميرو بغضب، ضرب طرف رأسه، وأطلق تهديدات ضد الشاب المتهور، القصاصة التي لا فائدة منها، الرديء، لكنه لم يقتله. القانون يسمح بذلك، وهو قانون سنّه بنفسه، لكنه لم يقتله. طلب ثلاث مهمات.

أمره السيد بريميرو أن يحشو مخدة بريش الضفادع. من كرسيه تمتم كانتاليثيو: «لم ير مطلقاً ضفدعة لها ريش.»

لكن دولوريس انطلقت إلى البحيرة حيث تعيش خمسون ضفدعة جاءت من نهر بارابيتي البعيد.

في ذلك النهر، تحدت ضفدعة نعامة في سباق. بعد بضع خطوات تركت النعامة خصمها وراءها بعيداً. نظرت إلى الخلف لتراها، لكن الضفدعة كانت تقفز بعيداً إلى الأمام. حدث هذا خمسين مرة في ذلك السباق اللانهائي: بحثت النعامة عن الضفدعة بعيداً إلى الوراء ووجدتها بعيداً إلى الأمام. في النهاية دفعت النعامة المنهكة مقابل هزيمتها، تعرّتْ،وسلّمتْ ريشها كله. والفائزون الخمسون، الذين شاركوا واحداً بعد آخر في السباق، بقوا ليعيشوا في البحيرة حيث ذهبت دولوريس. روت لهم عن آلام حبها، فمنحت الضفادع غنيمتها.

أرسل كانتاليثيو المخدة التي حشاها وفق الطلب بريش الضفادع. ثم طلب السيد بريميرو إبريقاً من دموع الطيور.

تمتم كانتاليثيو ووجهه إلى الأرض: «لم ير مطلقاً طائراً يبكي.»

وهي تجلس قربه، ووجهها مضطرب، كانت دولوريس بين الغيوم. في حقول السماء عدت أحصنة بعرف من شعر النساء وأذيال الثعابين، وفي البحر في الأعلى اندفعت سفنٌ بأشرعة ورايات.

فجأة قفزت دولوريس وأشارت إلى سحابة تطير ببطء وبجناحين منتشرين.

حين بكت الغيمة وأنزلت دموعاً من المطر، ملأت الإبريق.

نظف كانتاليثيو سيفاً بخرقة. كان هذا الامتحان الأخير. أمر السيد بريميرو أن السيف ينبغي أن يكون نظيفاً في منتصف الليل، لكن لطخة الدم كانت تعاود الظهور. وكلما مسحته الخرقة تتعرق الشفرة الفولاذية مزيداً من الدماء.

«بهذا السيف سيقتلك،» حذّرت دولوريس وقبل منتصف الليل هرب الاثنان. حفرت سبعة ثغور في أرضية غرفة نومها وبصقت في كل منها، ثم غادرت، آخذة معها مقصين، قبضة رماد، حفنة ملح، مشطاً، ومرآة.

سأل السيد بريميرو سبع مرات: «هل أنت هناك؟»

وأجاب اللعاب سبع مرات: «أنا هنا.»

في المرة الثامنة فتح الأب الباب.

طاردهما ممتطياً خنزيرة سوداء.

اندفعت الخنزيرة مباشرة نحوهما، ورآها الهاربان تجيء، تبصق الماء والرعد في ضوء القمر الذي كشفهما. رمت دولوريس المقصين على الطريق وحيث سقطا ارتفع جدار من الجبال المسننة القمم.

أيقظتهما ضجة المطاردة فجراً. حين ظهرت الخنزيرة من الجبال بعدو كامل، رمت دولوريس قبضة الرماد في الجو فخيّم الظلام. تحت ستارة من الضباب، هربا بعيداً.

ركضت دولوريس جارة معها حبيبها المقوس الساقين، الذي كان يسقط بعد كل بضع خطوات على العشب، راغباً أن يقبِّل ويدخن وينام.

ومرة أخرى سمعا الضجة المقتربة. هجمت الخنزيرة وراكبها بعمى، كزوبعة تصدر زئيراً، على الشكل الساقط. لكن دولوريس رمت حفنة الملح فسدَّ طوفانٌ من البرد الطريق على المهاجمين.

كان كانتاليثيو الجسور والرشيق محطماً لا يقدر على المتابعة ومستعداً ليعيد ملك السيد بريميرو الذي لا يُقدَّر بثمن، وكان يحضّر وفي ذهنه كلمة تحرض على المصالحة الوطنية وترسل عالياً حمامات السلام وتجعل

الأحجار تبكي. لكن دولوريس التقطته، هزّته، دفعته إلى الأمام وأعلنت أنه من الأفضل أن يموتا سوية بدل أن يعيشا منفصلين.

حين هاجمت الخنزيرة من جديد، كقذيفة مدفع، رمت دولوريس المشط. اندفع دغل من الأغصان وفي ومضة شطرت العالم من الأفق إلى الأفق.

استغرقت الخنزيرة وقتاً طويلاً لتعثر على طريقها في الدغل الكثيف. حين تلاشى الغصن الأخير، اندفعت مرة أخرى، تصرخ من الظمأ، الريح تصفر تحت بطنها والسيد بريميرو يركب على ظهرها. رمت دولوريس المرآة فخرجت من الأرض بحيرة كبيرة كالسماء.

عبثاً نخس السيد بريميرو بالمهاميز ونفث لعنات. كانت الخنزيرة تبلل صفيرها ولم تعد تهتم بمعاقبة الجانحين، اللذين غابا عن البصر.

السيدة إيبا، والدة كانتاليثيو، لم تندهش من أن دولوريس جاءت وراءه من مكان بعيد جداً. فهي ترى أنه ليس هناك امرأة في العالم جديرة بكنزها. ولكي تعبر عن فكرتها تركت مكنسة عند المدخل.

لكن دولوريس حملت المكنسة وكنست المنزل. ولم تكتف بكنس المنزل فكنست الحارة والبلدة كلها والبلدة التي في الجوار والمنطقة برمتها.

زوّجهما الكاهن وأقيم احتفال سُفِحَ فيه الكثير من الشراب والطعام والعسل والخمرة ومستحلب سكوت.

ولو كان في البلدة جريدة لنشرت أنه بعد ذلك التودد، أصبحت دولوريس بريميرو وكانتاليثيو غالانتي زوجين سعيدين، وحّدا حياتهما الشابة إلى الأبد في حفل وقور حدد مصيرهما أمام العلي القدير إلى أن يأتي هادم اللذات ومفرق الجماعات.

في اليوم التالي صنع كانتاليثيو قارباً صغيراً من منديل ورقي وانطلق بعيداً.

أمسكته دولوريس حين كان على وشك أن يندفع فوق الخندق متجهاً إلى النهر.

نافذة على الحظ

في منتصف الليل، أثناء عيد القديس يوحنا، اشتعلت النيران على شواطئ جزيرة بويرتو ريكو.

في تلك الليلة رمى البشر أنفسهم في الماء إلى الخلف ليدرأوا المصائب. أكلت نساء مثيرات للرغبة بيضة مسلوقة مع كثير من الملح في وقت النوم، لكي يحضر شخص ما لهن مياهاً عذبة في أحلامهن.

في أثناء ليلة القديس يوحنا، أزهرت جميع أشجار التين، والنعناع، والخيزران، وفي الفجر انطلق البشر ليبحثوا عن تلك النذر الجيدة.

قصة موت السيد،
الفتاة الحزينة والعقاب

فقدت روحها ولم تستطع أن تعثر عليها في أي مكان. لم تعد مورا تريد أن تحيا، وأولئك الذين فهموا هزّوا أكتافهم: «ليس هناك علاج للحب.»

غنت المرأة أغنيتها المحطمة لكن ليس لأحد.

غنّتها ثلاث مرات وفي الثالثة جاء صدى أغنيتها الحزينة. جاءت الاستجابة من الشاطئ الآخر، فعبرت مورا نهر ويتشيوايان على المعبر الحجري.

تألم جسمها كله، حتى شعرها، لكنها لاحقت الشكوى التي تردد صداها، وتلاشت في الأفق، وضاعت. طاردتها، متعثرة بسبب ضوء القمر الضعيف، من هضبة إلى أخرى، فرسخاً بعد آخر، لا ترافقها سوى طيور البوم التي تدور فوق قمم التلال.

بعد وقت طويل عثرت على الصوت حيث ذهب صوتها.

رحّب بها الهيكل العظمي الناطق: «هذا منزلك؟»

عميقاً داخل الكهف، توهجت الشموع. آلاف مؤلفة من الشموع من جميع الأحجام والألوان: كان هناك فتائل شمعية طويلة بألسنة لهب وليدة، شموع كبيرة لصلوات المساء تشتعل بتألق، وأكوام من الشموع بفتائل قصيرة تقطر جداول من الشمع البارد الذي لا لون له.

كانت الشموع، الأجسام الملتهبة، تنتصب على جدران الكهف كله فيما ظلالها تنعكس على السقف. كانت مقاطعة ويويتلان بأكملها حاضرة في ذلك التألق. لم يكن هناك شخص غائب: يستلقي هناك الفقراء والأغنياء، المرتاحون والمتعبون، العراة والمتنكرون.

قال الهيكل العظمي: «ليس هناك تيجان من الذهب أو الأشواك تحت الأرض.»

انحنى وقدم نفسه: «الباسط. الأصلع. الثرثار. الحقير. المثير للأعصاب. البارز الأسنان. المرتجف. الغباري. المسودّ.»

وبصوت مفرط العاطفة ومتملّق: «يمنحونني أسماء نساء. لا تصدقي ذلك.»

بعد كل بضع خطوات، يتوقف مالك النار وينفخ في جميع الاتجاهات ويطفئ ألسنة اللهب لأمر مفيد. وهو يشير إلى شمعة حمراء طويلة تتابع الفرقعة منطفئة ومشتعلة، سأل: «هل تعرفت على تلك النار المثيرة للشك؟»

برد دم مورا.

لم تنساه مطلقاً. شاهدته مرة في أثناء طفولتها، في موكب. كانت مورا عذراء غوادالوبّه الصغيرة على عرش من الأزهار، عارية تحت النسيج الأبيض، عيناها جاحظتان، يداها متشابكتان، وبزغ الهيكل العظمي فجأة من بين سعف النخيل على المذبح. غمزها فسقطت الفتاة على الأرض.

والآن حملتها ساقاها إلى المملكة الحزينة، ولم تستطع تحمّل الإصغاء إلى صراخ ذلك الحنك. أصدرت الجمجمة المرزبانيّة قوقأة أوبرالية وابتعدت. كان يمقت مسائل مروِّعة كهذه.

مرت الأيام.

بقيت مورا سجينة. أغراها السيد موت الخنوع، ذو الأسنان السكرية، والشعرات الشوكولاتية: قدم نهاية لجميع الآلام، قبلة تمحو جميع القبل

التي سبق أن قبِّلت أو التي ستُقبِّل،الإقامة الدائمة. وبينما كان يهمس في أذنها، كانت يداه النحيلتان تنسجان جدائل طويلة من الأزهار السوداء وتنحت وتصقل صليباً سبجياً على شكل جسم امرأة.

خافت مورا من أن تنظر إلى نفسها في بركة الكهف، مرآتها الوحيدة، لأن البركة يمكن أن تشرب وجهها.

أرسل السيد موت مورا في رحلة حول المستنقع وأمرها أن تحفر قبراً بأظافرها في البقعة ذات التربة الأفضل والظل الأبرد.

حينها حاولت مورا أن تهرب. في اللحظة التي خطرت فيها الفكرة في ذهنها، انشقت الأرض شقاً عملاقاً وانفتح جرفٌ عند قدميها.

بكت مورا، بكت لنفسها.

لكن الريح التي تهب في أي مكان هبّتْ آنذاك، وشعرت المرأة الملعونة بدهشة أنها ولدت وبفضول الحياة وبأنها ينبغي أن تعيش بأية طريقة تستطيعها، في أي مكان، لأية مدة من الزمن: ساعات الفراشة، أيام الذبابة، قرون السلحفاة.

صرخت فسمعها العقاب الكبير ذو الصدر الأبيض من الأعالي. طار وحط إلى جانبها. تلقت مورا ريش العقاب مقابل شعرها وجناحيه مقابل ذراعيها.

كانت خائفة ومرعوبة من الأعماق التي تمتد تحتها. تراجعت إلى الوراء لتبدأ بالجري، خطت بضع خطوات، وعلى حافة الهاوية سقطت إلى الوراء. هذا ما كانت تفعله، نعم ثم لا، حين دفعها العقاب وفي منتصف السقوط نشرت جناحيها اللذين حملاها وهي تندفع في خفة الجو الحر. كانت متعتها كبيرة بحيث حسدت نفسها.

الذاكرة تأكل الأموات. العقاب، كذلك. تماماً مثل الذاكرة، يطير العقاب.

وذلك العقاب، الذي يأكل الأموات بحكم العادة، دخل بسعادة إلى الكهف حيث عثرت أغاني الحزن الذي لا يداوى على مصيرها.

شاهد السيد موت الجسم قادماً، شعرَ امرأةٍ، ظلَّ امرأة يتخايل قرب الفتائل، وقفز عليه.

لكن العقاب هو الذي قبّل في البداية. دفن منقاره القوي في فم الموت ونقر وأكل. جاءت الدموع إلى عينيه، لأن الموت، الذي بدا عذباً، كان يحترق، أكثر سخونة من فلفل هابانيرو أو الفلفل الغاضب لحديقة الشيطان.

نافذة على المرايا

الشمس تشرق وتحمل بعيداً بقايا الليل الظلية.

العربات التي تجرها الخيول تلتقط القمامة، من باب إلى آخر.

في الجو تحيك العنكبوت خيوطها اللعابية.

يسير إل تورنيو في شوارع ميلو. البشر الذين في البلدة يعتقدون أنه مجنون. يحمل بيده مرآة وينظر إلى نفسه بجبين مقطب. لا يزيح عينيه عن المرآة.

«ما الذي تفعله يا تورنيو؟»

يقول: «أنا هنا، أراقب الأعداء.»

نافذة على الموت ١

لم تقدر هيلينا بياغرا على فتح عينيها. لقد احترقتا. حكّتهما فسقطت أهدابها وكذلك حاجباها. كانت في السينما. وحين نجحت أخيراً في فتحهما، شاهدت شاشة سوداء.

نافذة على الموت ٢

كان رماد ألبرتو يستلقي في تربة توكيومان. كـــان رمـاد ألـبرتو ينمـو في خضرة المكان.

ورثت هيلينا قبعتــه. تنـام هيلينـا فتنـام كذلـك قبعـة ألـبرتو. وفي حلـم هيلينا، تحلم القبعة.

حلمت القبعة أنها نشرت جناحيها ودارت لكي تنطلق مع هيلينا نحــو الداخل.

استيقظت مصابة بدوار البحر من دوران كثير كهذا.

قصة راعي البقر الذي كان يغوراً

كان رجل قوى وألغاز، شيئاً لن تصدقه. تحديقته تنكأ الجراح أو تشفيها، وتجعل البشر والوحوش يغشى عليهم أو ينبعثون. رفة واحدة من عينيه تصرع الجواد الأكثر وحشية والثور الأكثر هياجاً.

كان بنتورا، راعي البقر المتجول من ميناس غيريس، يعبر كالريح. له مسارات عدة، نساء كثيرات، لكن بدون منزل. له صديق واحد فقط، وكلاهما رسن مصنوع من الحبل ذاته.

كانا يتجولان في منطقة كثيرة الجفاف والعواصف الغبارية بحثاً عن قضية لا فائدة منها. لم يأكلا شيئاً لعدة أيام، وفقدا جواديهما وطريقهما. لا شيء للطعام: عظاءات، أشواك، أدغال ليس فيها ثمار أو ظل. اعتاد بنتورا على ذلك، لكن صديقه لم يقدر على الاستمرار. وحين استلقى الصديق ليموت وسط تلك العزلة، حوّل بنتورا نفسه إلى يغور لكي ينقذه من الموت جوعاً.

قبل أن يتحول إلى يغور، قدم لصديقه ورقة زرقاء ذات نقاط كالنجوم، ليست من أية شجرة، وقال: «حين أعود، ضع هذه الورقة على لساني.»

وقال إنه ليست هناك طريقة أخرى ليحرر نفسه.

سافر بعيداً، وأمضى الليل في الصيد.

عاد فجراً، مع الضوء الأبيض الأول، يحمل أيِّلاً على ظهره. حين شاهده الصديق قادماً، حين شاهد ذلك اليغور الضخم قادماً إليه بفكين عريضين، فرّ مذعوراً.

راقبه اليغور وهو يهرب. لم يطارده.

لم يترك شيئاً على قيد الحياة في الأماكن التي ذهب إليها. كسرَ الحجارة، بسطَ التلال، هدمَ الوهاد. وهو يضطجع بين الأعشاب الطويلة، كان اليغور يرفع رأسه ويشم الريح ويزأر بغضب حزين، فلم ينم أحد.

استغرق الصيد وقتاً طويلاً. سربٌ من العقبان يتبع آثار خطاه نبّه جيشاً من الرجال الذين بدأوا يطاردونه.

ضاقت الأنشوطة، اقتربت دائرة من الرجال المتعرّقين والصاخبين، دوّى رعد الطلقات وصرخات ونباح، إلى أن قفز اليغور للمرة الأخيرة في إحدى الليالي المقمرة عالياً في الجو وزأر وسقط. كان قد مات من مطر الرصاص حين دفع بنتورا سبطانة بندقيته في حنجرة اليغور وضغط على الزناد.

بعيداً عن هناك، استيقظ بنتورا. كان ملطخاً بالدم الجاف ويعذبه صداع وآلام من قبعته إلى قدميه.

حتى التنفس كان مؤلماً. كان السير صعباً جداً بالنسبة لذلك الظل الضخم والمتأرجح، وكان التذكر شاقاً كذلك. متى؟ أين؟ من؟ قمر مرتفع، قمر شرير. خيم الليل، خيم الليل في داخله، ولم يعد الليل وقتاً للحب أو الحرب. صمتت عيناه، ولم يمتلك سوى أذنين لدبيب الموت. حياة ملعونة، حياة دون شرارة. انبعاث؟ معاودة الموت. رماد ينتظر أن ينفخه الله.

مبيضّاً من الغبار، مسوداً من الأوساخ، ومثقلاً من الألم سار بنتورا في الزقاق وهو يجر قدميه. لا تكاد قدماه تسندان ذلك الجسد الضخم المهدم.

عبر بنتورا السوق، مديراً أذناً صماء للنساء وانطلق إلى الأمام وهو ينظر شزْراً، وفي النهاية وصل إلى الصالة. كانت واجهتها الكلسية تشع متألقة عند سفح قمة تلال التنين، وفي مكان قريب يتلألأ عرق الجياد المربوطة إلى الأعمدة.

على المدخل كان رجل أعمى يغني الأنباء. غنى فم الأعمى ما رأته عيناه، بينما علبة صفيح من الفكة تحدد الإيقاع. غنى الأعمى أناشيد عن اليغور المرعب، سوط الحقول، الذي قتل كثيرين ومات وهو يقتل.

بيد مرتجفة، يرفع بنتورا الحافة المكسورة لقبعته، يمسح العرق الذي حجب نظره ويرى: يرى جلد اليغور يتدلى على سلك في الشمس لكي يجف بثقوب لا تحصى. لم تترك الطلقات الكثير للعث.

يدخل الصالة.

يراه الصديق قادماً، يرى كيس العظام قادماً، فينزلق كأس شراب قصب السكر من أصابعه ويتحطم على الأرض.

يخرس الجميع، كل شيء.

نافذة على الأخطاء

حدث هذا في زمن الليالي الطويلة والريح الصقيعية: في صباح ما أزهرت شجرة الياسمين في حديقتي، وأشبعت الجو البارد بشذاها. وفي ذلك اليوم أزهرت كذلك شجرة الخوخ واستيقظت السلاحف.

كان ذلك خطأ لم يستمر. ولكن بفضل ذلك الخطأ، استطاعت شجرة الياسمين، وشجرة الخوخ، والسلاحف أن تصدق، مثلي، أن الشتاء سينتهي.

قصة الطائر الذي فقد ساقاً

كانت فراخهـا قـد كسـرت البيـوض لتخـرج وتتمـدد في العش. طـارت تنكويتا لتعثر لها على طعام. كان الشتاء مخيماً في كولتشـاغوا فجمَّـد الثلـج إحدى ساقيها. احتجت:

«لماذا جعلتني عرجاء؟»

أجاب الثلج: «لأن الشمس أذابتني.»

شكت تنكويتا للشمس، فقالت: «لأن الضباب يغطيني.»

والضباب: «لأن الريح تشتتني.»

والريح: «لأن الحائط يسدني.»

والحائط: «لأن الفئران تثقبني.»

والفأرة: «لأن القطة تفترسني.»

والقطة: «لأن الكلب يطاردني.»

والكلب: «لأن العصا تضربني.»

العصا: «لأن النار تحرقني.»

والنار: «لأن الماء يطفئني.»

والماء: «لأن البقرة تشربني.»

والبقرة: «لأن السكين تذبحني.»

والسكين: «لأن الإنسان يشحذني.»

والإنسان: «لأن الله خلقني.»

تنكويتا، التي تتعثر في سيرها، غنّت لله فسمعها، ثم سألته لماذا خلقَ الإنسان الذي يشحذ السكين، ويقتل البقرة التي تشرب الماء الذي يطفئ النار التي تحرق العصا التي تضرب الكلب الذي يطارد القطة التي تأكل الفأرة التي تفتح ثغرة في الحائط الذي يسد الريح التي تشتت الضباب الذي يغطي الشمس التي تذوِّب الثلج الذي جمّد رجلي.

قال الله: «آه يا تنكويتا، عليَّ أن أخلق الإنسان لكي يخلقني.»

نافذة على الكلمة ٥

بحث خابيير فيلافاني، بلا جدوى، عن الكلمة التي انزلقت فيما هو على وشك أن يتفوه بها. كانت على حافة لسانه تماماً. أين ذهبت؟

هل هناك مكان لجميع الكلمات التي لا تريد أن تمكث؟ هل هناك مملكة كلمات ضائعة؟ تلك الكلمات التي تهرب، أين تكمن منتظرة؟

قصة الوحي المقدس
لحياة كلب في هذا العالم

«هل يهمك؟»

«نحب الرفقة.»

«شكراً جزيلاً.»

«اسمي فلوريس. المهنة: عازف غيتار، بخدمتك.»

«يسعدني ذلك. ثنيثا:كلب.»

«هل تحب أن تحتسي كأس متة؟»

«لا أحب عادة.»

«يا لها من مصادفة. كنت لتوي أتذكر ذلك اللحن القديم عن الأذيال.»

«أي لحن؟»

«الألم الذي يشعر به كلب حين يقطعون ذيله...»

«آه، نعم. أعرفه: إنه كما يشعر الذيل حين يقطعون الكلب.»

«هذا هو.»

«في الحقيقة، يا سيد فلوريس، لا نعرف الكثير عن الأذيال.»

«ليس كثيراً. نعرف أنه كان هناك مهرجان في السماء. أنتم معشر الكلاب غطستم في النهر، ليس في البارانا وإنما في نهر في الفردوس...»

«وتركنا أذيالنا تجف على الضفة. إن ذيلاً مبللاً لن يطرد البعوض.»

«صحيح. جميع الأذيال على الضفة في صف.»

«والله هو الذي خدعنا تلك الخدعة. جعل النهر يطوف.»

«طاف النهر.»

«وكان علينا أن نخرج من هناك بسرعة. في أثناء العجلة أخذ كل واحد الذيل الذي وقع في يده. منذ ذلك الوقت ونحن نشم بعضنا بعضاً لنعثر على الذيل الذي فقدناه.»

«يعرف الجميع تلك القصة، يا سيد ثنيثا.»

«البشر يصدقونها، وهكذا نصدقها نحن.»

«إنها معروفة جيداً.»

«لكنها لم تحدث.»

«من قال لم تحدث.»

«الله.»

«آه.»

«الكلب العظيم.»

«ماذا، هل رأيته؟»

«كل من يراه يصاب بالعمى. شعرت به. لقد استدرت وشعرت بشيء مقدس.»

«إلهنا لا يظهر في غالب الأحيان.»

«وكذلك إلهنا.»

«وهو اختارك.»

«هذا الخادم المتواضع.»

«أنت محظوظ.»

«لا تصدق ذلك. قال لي الله أن أنشر الحقيقة بين كلاب العالم وأقول إن المهرجان في السماء لم يحدث مطلقاً.»

«وهل نشرت الخبر؟»

«وهل تريدني أن أذكر أنه لا ذيل لنا نبحث عنه؟.»

«أعتقد أنني فهمت يا سيد ثينثيا.»

«نعم يا سيد فلوريس.»

«سبب صمتك.»

«الآن لا ممر يغويني.»

«صحيح.»

«قبل أن أكون متحرر القدمين وحر الخيال. لم أترك مكاناً لم أذهب إليه. في تلك الأيام لم أملك أي ذيل.»

«والآن...»

«الآن يبدو أنني سأملك، لكنني قادم.»

«حظ كلب.»

«عالم كلب.»

«قدر.»

«سيد فلوريس؟»

«ماذا؟»

«احفظ سري.»

« يمكنك أن تثق بي.»

«وانتبه من البرد، يا دون فلوريس. حنجرتك.»

نافذة على الفن ١

في ثاراغوثا قدموا الثناء لأطلال برج رومانيٍ جميل. لم يبنوا آخر ليستحضروا ذكريات البرج الذي كان مرة: بدلاً من ذلك يجلس طفل برونزي يضم ركبتيه وينظر إلى الثغرة الضخمة حيث كان منتصباً.

نافذة على الفن 2

كنت طفلاً، وأردت أن أرسم. وبعد أن كذبت بخصوص عمـري تسللت بين الطلاب الذين كانوا يرسمون امرأة عارية.

في الصفوف، تابعت هدر الأوراق مصارعـاً كـي أجـد خطوطاً وأشـكالاً. وتلك المرأة العارية، التي بدلت وضعيتها، مثّلت تحدياً ليـدي المرتبكـة ولا شيء أكثر: شيء ما كأصيص يتنفس.

ولكن في إحدى الليالي، في موقف للباص، رأيتهـا بثيابهـا للمـرة الأولى. حين صعدتْ إلى الباص، ارتفعت تنورتهـا وكشـفت عتبـة فخذهـا. آنـذاك احترق جسدي.

نافذة على الكلمة ٦

باعد حرف A بين قدميه.

M أرجوحة ترتفع وتنخفض بين الفردوس والجحيم.

O دائرة مغلقة، تخنقك.

R حامل بشكل سيئ.

«جميع أحرف كلمة Amor خطيرة جداً»، كما تقول رومي دياث بيريرا.

حين تخرج الكلمات من فمها، تراها مرسومة في الجو.

قصة الدلفين الذي اصطاده الشيطان دون حربون أو إغراء.

أضاء البدر مياه نهر الأمازون وقفز دلفين برشاقة في الجو، قائماً بخدع بهلوانية وسط الأمواج اللامعة. كان هناك كثير من الهياج والرقص في البلدة، ونادت صرخات محبي الموسيقى الدلفين من الساحل.

وللمرة الأولى، قال البدر، الذي لم يخصّه بأي انتباه: حسناً. في تلك الليلة، طالما يستمر الليل، سيسمح له أن يخرج إلى اليابسة.

انتصب الدلفين طويلاً وعارياً على الرمل، منحه البدر جسداً جديداً وثياباً جديدة.

ذهب إلى المهرجان.

رقص معتمراً القبعة، كي لا يرى أحد ثقب التنفس في رأسه. وترك الحشد فاغري الأفواه: دهش الجميع من جلده الأحمر ذي اللمعان الأزرق ومن نظرة عينيه الواسعتين، ومن عطشه الذي لا تطفئه لترات من شراب قصب السكر. وتعجب الجميع من رقصه دون أن يلمس الأرض، مندمجاً بالموسيقى، سابحاً في مياهها.

وبينما كان يتموج مع الموسيقى، عانق امرأة. فتابع الاثنان الرقص فيما بعد، دون ثياب ودون أي شخص آخر، على إيقاع موسيقى تنبع من عناقهما.

كان معتاداً على اللعب في الماء، لكن لم يسبح مطلقاً داخل امرأة.

كان فوقها حين شعر بضربة خفيفة أحرقت ظهره. استدار ونظر: صعدَ لهبٌ فوسفوري في الجو وارتدى براثن وقرنين ولحية. تأرجح شخص أحمر جداً ولمعَ في السواد: «انهض أيها المتطفل»، قال.

ارتبك الدلفين ولم يفهم.

كان الوافد الجديدة فظاً، يحمي منديل حريري حنجرته من الهواء البارد للمناطق الاستوائية. مشيراً إلى الساعة على رسغه، صاح: «عد إلى النهر أيها الوحش الدميم، انتهى وقتك.»

وتذكر الدلفين ما نسيه. سينتهي الليل حالاً وبذلك سينتهي وقته على اليابسة. نظر إلى المرأة المتكورة إلى جانبه، شعرها الأسود الطويل شرك من الأعشاب البحرية، والصوت الأجش ضرب أذنه: " ليست سيئة."

ابتسم الأحمر، بأسنان كثيرة: «هدية ظريفة. يجب أن تكون اليوم. الجمعة الطيبة، يومي.»

ومد برثنه إلى الجسد الذي نبض مع إيقاع حلمها. ارتد عليه الدلفين ضارباً فمرت الضربة في الجو. شعرت بنسيم خفيف، طرفت عيناها، وعادت إلى النوم.

تأرجحت الشبكة بهدوء: الشبكة التي لا تزال تحتويهما.

والشيطان الذي يجرب عذابات الجحيم في هذا العالم، همس ملغزاً: «مع من ستنام هذه المرأة غداً؟»

وومض متلاشياً في الظلمة. آخر الظلمة: الضباب الرمادي للفجر بدأ مسبقاً ينتشر في الجو.

ليل مستعار، جسد مستعار.

لعن البدر من أجل كل ما قدمه، ولعن الشمس من أجل كل ما ستأخذه.

تمتمت شيئاً في أثناء نومها وضمها بشدة إلى جسمه. أراد أن يأخذها لكنه لم يستطع، وأراد أن يبقى لكنه لا يستطيع أن يبقى كذلك.

جعّد نسيم الصباح الباكر مياه النهر.

على بعد بضع خطوات من الحافة، يحتضر دلفين.

تشرق الشمس، توقظ العالم ألوان وعطور سماوية.

نافذة على تاريخ العالم

مرة كان هناك زمن هو الزمن الأول. حدث هذا حين انتصب الإنسان وأصبحت أقدامه الأربع ذراعين وساقين، وبفضل الذراعين والساقين أصبح حراً واستطاع أن يبني منازل أكثر جودة بدلاً من قمم الأشجار والكهوف. وبعد أن وقف الرجال والنساء على أقدامهم اكتشفوا أنهم يستطيعون أن يمارسوا الجنس وجهاً لوجه وفماً لفم، وتعلموا متعة النظر في أعين بعضهم بعضاً في أثناء تعانق أذرعهم وتشابك سيقانهم.

نافذة على الكلمة ٧

كان قد أمضى في السجن أكثر من عشرين عاماً حين حدد مكانها. لـوَّح لها من نافذة زنزانته، ولوحت له من نافذة منزلها.

فيما بعد، تحدث معها بوساطة خرق ملونــة وبـأحرف كبـيرة. صنعـت الأحرف كلمات قرأتها بمنظار تجسس. أجابت بـأحرف كبـيرة، كونـه لا يملك منظاراً.

وهكذا نما حبهما.

والآن تجلس نيلا والزنجي بينا ظهراً إلى ظهر. إذا نهض أحدهما يسقط الآخر.

يبيعان الخمرة قبالة أطلال سجن بنتا كاريرا، في مونتيفيديو.

قصة الرجل الذي أحب
في السماء المرتفعة نجمة تركته

حصلتْ سرقاتٌ لكن لم يكـن هنـاك لصـوص في وادي كوزكـو. حصلـت السرقات ليـلاً في الحقـل ذي البطاطـا الأفضـل. راقـب المـالك طـوال الليـل بعينين مفتوحتين، ولكن جفنيه أطبقا لوهلـة وفي لحظـة اختفـت البطاطـا، تاركة خلفها صفوفاً من الحفر الطرية.

في إحدى الليالي، تخفّى الرجـل. اسـتلقى منبطحـاً وسـط الحقـل وبـدأ يشخر فيما إحدى عينيه مفتوحة. مـرت السـاعات وحـين اقـترب الفجـر، وميضٌ عنيف جعله يقفز.

أعمـاه الضـوء البـاهر، لكنـه نجـح في إمسـاك أحـد اللصـوص بيديـه العاريتين. هرب البقية في انفجـار لهـب عاليـاً في السـماء، ومكثـوا هنـاك، ليضيئوا ما تبقى من الليل.

وعدت النجمة المسجونة أن تعيد البطاطا المسروقة كلها، وتوسـلت: «لا تجعلني أعيش على الأرض.»

لكنه لم يتركها تذهب. غطى عريها الضوئي بثياب صوفية وأغلق عليها في منزله.

وفي أحد الأيام، وقت الغروب، حين لم يكن ينظر، هربـت النجمـة إلى السماء. وبفضل الكندور طار الرجل وراءها.

في أثناء الرحلة الطويلة، شاخ الرجل والكندور وزاد سنهما، إلى أن أصبح عمرهما قروناً. ولكن حالما وصلا، غاصا في بحيرة الزمن وسبحا وظهرا شابين من جديد.

انطلق الرجل عبر الضباب اللامع لدرب التبانة. وفي تلك الرحلة تعرف على نجمته. وتوسل إليها أن تتركه يبقى.

عاشا سوية في زاوية خفية من السماء.

عند كل غروب، تذهب مع شقيقاتها لإضاءة ليل الكون. وعند كل فجر تعود، جالبة طعاماً أرضياً تعثر عليه بعد أن تنزلق في أهراء الشمس والقمر.

استمر الأمر إلى أن أصبح من المتعذر استمراره.

في أحد الصباحات لم تعد النجمة فتجوَّل الرجل عبر ضباب السماء البارد، جائعاً ووحيداً، منادياً عليها.

أعاده الكندور إلى الأرض، حيث مات من الأسى.

لم يعد قادراً أن يروي القصة. لم تخرج كلمة من شفتيه اللتين لم تنفتحا حتى من أجل تناول الطعام. ربما لأن النجمة صدمته، أو ربما لأنه عرف أنه هنا على الأرض سيعتبرون قصته كذبة واضحة أو تهيؤ مخلوقٍ مسكين يعتقد أنه الله الذي يجلس على عرش مملكة الليل.

أما بالنسبة إليها فلم يتفق المنجمون حولها. هناك من يقول إنها سقطت بسبب الحب، ويقول آخرون إنه ليس هناك سبب لإطلاق ذلك الاسم على ما كان مجرد شفقة أو فضول.

يؤكد البعض أنها رفست الرجل لأنها لم ترغب برؤيته يموت. وحسب هؤلاء المختصين، لا تفهم النجوم عادتنا في الحياة لفترةٍ قصيرة جداً، ولا تفهم كذلك رغبتنا المجنونة في التسلق إلى السماء: لا تعرف النجوم شيئاً عن الموت البشري، لكنها تعرف أن هناك فوق الغيوم بشراً لا يمكن أن

يولدوا من جديد في الأبناء الذين ينجبونهم، أو في البطاطا التي يزرعونهـا، أو في الحب الذي يتركونه خلفهم.

ويعتقد آخرون أنه كان وداعاً إلزامياً. حذرت الشمس والقمر النجمة أنه من الأفضل لها أن تعثر على مجرة أخرى تعيش فيها مع المتطفل. وهكـذا، لا تستطيع الاستمرار: في كل نزاع محلي، يزداد عمر الرجـل مائـة عـام، وتركت النجمة في ظلمة كلية. وصحيح أنه فيما بعد، حين سامحا بعضهمـا بعضاً علـى غبـاء الكراهيـة المتبادلـة بينهمـا، اسـتعاد القـرن الـذي فقـده وازدادت روعتهـا. لكـن هـدوء الفضـاء لا يقـدر أن يتحمـل كـوارث كهـذه. وحينها، على ما يبدو، قرر الرؤساء السماويون أن يتخلوا عن البطاطا الـتي أحبوها كثيراً، ومحيت الطريق إلى الأرض إلى الأبد.

ندمت النجمة لأنها أطاعت الأمر الـذي حكـم عليهـا بالعزلـة. هـذا مـا زعمه مصور أمضى حياته كلها وهو يصور النيازك. إنـه متـأكد، ويقـول إن لديه دليلاً: النيازك كلها متشابهة لأنها كلها وحيدة. ذلك الضوء الوحيـد، المتجول والمبلل، هو النجمة التي عرفت مرة خطر ومتعة العناق الإنســاني، التي خافت وهربت وطوردت وعُثِرَ عليها. مذاك، يعرف جسدها الصامت، الذي غنى مرة للرجل، أنها ولدت لتكون اثنين أو لا أحداً. وهي الآن تطير بجنون عبر الليل، بحثاً عن الطريق المفقود إلى هذا العالم.

نافذة على امرأة!

تلك المرأة منزلٌ سري.

في زواياها، تحفظ الأصوات وتخبئ الأشباح.

في ليالي الشتاء، تنفث دخاناً.

كل من يدخلها لا يغادر مطلقاً، كما يقولون.

أعبر ذلك الخندق العميق الذي يحيط بها. سأسكن في ذلك المـنزل. فيـه تنتظر الخمرة التي ستشربني. برقة أقرع الباب، وأنتظر.

نافذة على امرأة 2

المفتاح الآخر لا يدور في الباب.

الصوت الآخر، مضحك، مختل، لا يغني في الحمام.

في الحمام ليس هناك أثر لآثار الأقدام المبللة.

لا عطر دافئاً يأتي من المطبخ.

تفاحة أُكِلَ نصفها، معلّمة بأسنان أخرى، تتعفّن على الطاولة.

سيجارة دُخِّنَ نصفها، رماد دودة ميتة، يلطخ حافة المنفضة.

أعتقد أنه ينبغي علي أن أحلق. أعتقد أنه ينبغي أن أدرس. أعتقد أنني ينبغي أن.

مياه قذرةٌ تمطرُ في داخلي.

نافذة على امرأة ٣

لا أحد يستطيع أن يضيّع ذلك الوقت، لا أحد: حتى أنفسنا. أقصد: طالما أنك موجودة، أينما كنت، أو طالما أنا موجود.

يقول التقويم إن ذلك الوقت، القصير، لم يعد يوجد، ولكن، الليلة، جسدي العاري ينزّ بك.

نافذة على الموسيقى ا

«أولئك الذين يعرفون أن يعزفوا على الأكورديون يجعلونه يتحدث»، هذا ما أحب السيد أليخو دوران أن يقوله. «بالنسبة إليهم، الإنسان والأكورديون واحد.»

كان السيد أليخو راعي بقر وشاعراً جوالاً، معلماً في الوهق وتوقيع النغمات، والشاعر المؤرخ للساحل الكولمبي. ودائماً من أجل المتعة، وليس من أجل العمل بتاتاً. حين لا يقع في الحب، يصمت أكورديونه.

لم يكن يعزف ألحاناً باكية. موسيقاه صريحة وفرحة، والنساء اللائي تناديهن موسيقاه من بعيد، دون حاجة إلى هاتف، صريحات وفرحات.

نافذة على الموسيقى ٢

كان بابا مونتيرو راقصاً ومدندناً، رجــلاً أدخـل المتعـة إلى ليـل هافانـا. رقصت المدينة كلها رقصة الرومبا معه، ورقصته انطلقت.

حين طعنت مديةٌ بابا مونتيرو، صمت ليل هافانا. ولكـن وسـط اليقظـة سُمِعَتْ الرومبا. لم يكد يلاحظ ذلك أحد.

فجراً، حين ذهب الأصدقاء ليحملوا التابوت بعيداً، وجدوه فارغاً.

قصة شعب القمر

عظامٌ قديمة، أعين بلا ضوء. صفراء كلها، تنظر. أنظرُ أنا. أرى نفسي هناك، بعيداً، في سنوات الزمن الصفراء.

كنت امرأة رجلٍ يتجوَّلُ دائماً على الأرض. كنت أنا وهو ننطلق على الدرب، نحمل أكيَاساً على ظهرينا، وننطلق إلى عمل الصيد. خرّبنا أقدامنا، اشتغلنا إلى بانت عظام أصابعنا: ننصب الأسيجة، نشمُ الحيوانات، ونقوم بأي عمل يتاح لنا. لم يبق أحدٌ في بلدتنا. ربما اثنان أو ثلاثة. وخرس جرس الكنيسة ميتاً من الظمأ. إلى أن جاء في أحد الأيام الجفاف الكبير...

أنا أضجركَ. دائماً تروي جدتي القصة نفسها. هيا، لننقع الفاصولياء. ألا تستطيع النوم؟ لا أنام مطلقاً. أتمرن طيلة حياتي ولا أزال أجهل كيف. اجلس قربي، المطبخ هو المكان الأفضل. الجدة تعرف. هذا أفضل من أجل ليلة بلا نوم، ونهار بلا روح. الموقد لا ينطفئ مطلقاً.

هل أخبرتك عن شعب القمر؟ الذي جاء إلى هنا. لم أشاهده، كلا. لم يكن مرئياً أو قابلاً للمس. شعب القمر الذي جاء على مزلقة السماء. وهذه حقيقة إلهية قسماً بهذا الصليب. إذا سمعت كلاماً مختلفاً لا تصدقه. هنا، في المدينة، أعرف أن الشائعة تنتشر بأن البشر ساروا على القمر، لكنهم يكذبون. حين تجهل القراءة، يسخرون منك. لكن أن تتسلق من هنا إلى هناك، فكر بالأمر، من يقدر أن يفعل ذلك؟ هم، شعب القمر، سافروا من هناك إلى هنا. هذا مختلف، إنه انحدار على سفح الهضبة.

أصدقاء جدك. لطيفون جداً معي. ومع جـدك، تماماً كما تسمع: يد وقفاز. لم يعرفوا أحداً في المدينة. وكذلك نحن. لقد جئنا، أنفسنا، من قمر آخر.

الصحراء. لم تشاهدها بتاتاً. لا شيء، لا أحد. وجاء الجفاف الكبير. بالقطرات القليلة الأخيرة غسلنا الدجاجة، وذلك يجلب المطر كما يقولون. كثير من الصلوات والشموع. لا شيء. وهكذا، وداعاً، غادرنا دون تفكير بالعودة، حاملين ملابسنا على ظهورنا. رحلة عبر الأرض الميتة، حجٌّ. بعيداً، بعيداً، كما لم يحدث من قبل. عبرنا نهر سالغادو، القذر والموحل، وتابعنا السير نحو الماوراء، بحثاً عن الخضرة، عن ممر الشمس في النهار، متبعين، في الليل، خريطة النجوم. وبعد وقت طويل، حدث هذا في الليل، التوهج، الشبح، سكة القطار. وصلنا إلى المحطة شبه ميتين. وضعنا قطعنا النقدية، أوراقاً قديمة مجعّدة، ما ادخرناه وما بعناه، كل شيء: اشترينا بطاقتين إلى أبعد ما نستطيع الذهاب. وانطلق القطار ليلاً ونهاراً، نهاراً وليلاً، بقينا هادئين وسافر العالم، عالم مختلف، أشجار ومنازل جميلة ونظيفة تعدو قربنا.

وتوقف. انتهت الرحلة. طلبوا منا النزول. كانت تمطر في الخارج، فدخلنا المطر. واقفين في المطر، نحن الاثنين. أفواهنا فاغرة، أذرعنا منشورة، مطر أمطر دموع الله كلها.

ودخلنا المدينة كعميان وقعوا في مصيدة تبادل إطلاق النار. أشياء لم تشاهد مطلقاً. بشر محتشدون ومستعجلون. سيارات كثيرة، تزأر كوحوش برية. آلات تطارد البشر، آلات تأكل البشر. كل شيء ممنوع. ليس هناك زاوية للتبول أو النوم. الذين يستطيعون أن يقرأوا، يقرأون: ممنوع. والذين يجهلون القراءة، يعرفون من الضربات، مدرسة الإنسان الفقير.

نعم، يا ولدي، أعرف. شعب القمر، هذا صحيح. أستمتع بعرض الكلمات، لكنني لا أضيع.

سأخبرك. حين وصل شعب القمر، لم يعرف أحد بالأمر. كان جدك يعمل في الفرن كحيوان. لم يتحدث مع أي شخص. انحنى ظهره تحت الحطب، تحت الخبز، كان ينهق لنفسه. حمار دون ذيل؟ مؤخرة حمار، جلد رمادي، أذنان طويلتان مشعرتان. وعندئذ حدث الأمر. فتح أذناً واحدة فدخلت الموسيقى إليه. عزف له شعب القمر موسيقاه. صدقني، كما أقول لك: غيّرتْهُ الموسيقى. أصبح جدك إنساناً مرة أخرى، تم إنقاذه. اعتاد الخبّاز أن يمنحنا بقايا لنأكلها. لكنه توقف عن ذلك لأنه لا يحتاج إلى كائن بشري.

فيما بعد، واصل جدك سماع الموسيقى. عالج شعب القمر رجله. كانت الكوبرا داخل رجله، كوبرا كبيرة، لدغته. حدث هذا في حقل قصب السكر، في أثناء الحصاد، طار المنجل بعيداً. قصة قديمة، قصة لا تنتهي مطلقاً. شفي الجرح، بعد أن التأم، وفي أحد الأيام استيقظت الكوبرا، انطلقت عبر الجرب، تفوح منها رائحة سيئة، كانت تتعفّن. ودخلت الموسيقى ساقه، طردت الكوبرا. على ساقه الجديدة، رقص جدك.

يرقص، يشرب، يأكل. حياة عظيمة. أراد شعب القمر أن يرى كل شيء. لنذهب من هنا، لنذهب إلى هناك. جنّنتْهم المدينة، ناشدو لذة حقيقيون. أمكنة رائعة ومهيبة، جلد أبيض، شعر ذهبي، ثياب فضية، تخيل هذا إن كان بوسعك. لن تذهب إلى هناك مطلقاً. يا ذا الوجه القصير والثخين، لا يسمح للفقراء بذلك. أما شعب القمر فيستطيع، ريح تفتح ذلك الباب، وجدك خلفه وأنا في ذراعه، أخطو كملكة، " بخدمتك يا آنسة. " نقود؟ لا نقود. كان شعب القمر يعزف ولم يكن هناك أجرة، أو دفع، لنسمع موسيقى، لتتواصل الحفلة. لا ينام شعب القمر. صقور ليلية، أعين مفتوحة. مثلك ومثلي، بهذه الطريقة.

وفي إحدى الليالي، لم يكن هناك شعب قمر، انتهت الحفلة. غادروا. لم يعرف أحد إلى أين. لم يعرف أحد ذلك السر. إنهم هناك في الأسفل، في السماوات الدنيا، كما أود أن أقول.

ماذا يشبهون؟ هل لهم أنتينات مثل مارتيانز الصغيرة؟ أنت لا تصغـي. لا يمكن رؤية شعب القمر.

مر الوقت. أعمال، أطفال، عمل يكسر الظهر. لا أعـرف كيـف أحصي السنوات، لا أستطيع أن أخبرك.

أعرف أنه في إحدى الليالي كان جدك نائماً فسمعت الصوت. تماماً مثـل هذا، فجأة. خرجت الموسيقى من جسمه. خرجت من مســامه، إلى الجـو، ملأت الظلمة. هززت جدك، أيقظته. ما الخطب؟ لم يفهم أحد.

لم يعرف أحد. كانت الموسيقى لا تزال داخل جدك. تركها شعب القمر معه. كانت بالأحرى متقلّبة، تخرج حين تشاء ذلك. ثم بدأ جسده يغـني، ويضيء، شعّ ضوء في الجو. لم تتقيد بأيام أو ساعات ثابتة. كانت تجــيء كما تذهب. كان وقت موسيقى، ليالي مليئـة بـالعزف، جـاء جميـع سـكان الحي في المنزل، جاء بشر من أمكنة بعيدة، حشود. كنا نمضي الليـل كلـه في الموسيقى ونتابع إلى ما بعد الفجر. تستطيع أن تشاهد الموسيقى بعينيك، لها ألوان. وكل من يصغي يولد من جديـد. حتـى الجـو رقّ مـن الامتنـان، وصمتت الطيور.

حين تأتي الموسيقى تصمت جميع الطيور. كانت أفضـل منهـا وعرفـت الطيور ذلك. كانت تأتي في أسراب لتصغي.

كانت تطول كما تشاء. ثم تـودِّع. لا تعـود. انتظـار طويـل مـن أجـل لا شيء. لم تعد مطلقاً بعد ذلك. انتهى، لقد تلاشت. عالم مسكين. عالم فقيرٌ دون موسيقى.

الصمتُ جميلٌ. أحبه. ولكنّ ذلك الصمت... شاب شعر جدك، خصلاته السوداء صارت بلون الحليب. انظـر إلى هـذه الصـورة، أتـرى؟ نـام جـدك. شرب، ناداها، نام. حطم كل شيء، افتعل الخصومات، بعثر الزجاجات، ثم شخر مرة أخرى.

هذا سبب موته. ناداها وهو سكران، مات من الموسيقى.

هيا، هيا إلى النوم.

تعال، تعال تريّث قليلاً. تعال إلى الضوء، لا تنم وأنت مستند عليَّ.اعمل لي معروفاً.

تحتاج جدتي إلى رسالة. لدي ساعي بريد. الجار الذي في هذا الجانب، أنت تعرفه. إنه مريض جداً، ويحتضر. شخص ظريف، عرض أن ينقل رسالة لي إلى السماء. شكرته، قال لا.

جدي في الفردوس؟ لم يكن قديساً. الآن أعتقد: ينبغي أن يعرف الله العنوان، سوف ينقلها إليه.

لا أعرف الحروف. أنا أطلب منك، فأنت تذهب إلى المدرسة. اكتبها. سأوقِّعُ في الأسفل، خربشتي. اكتب إلى الذي اختاره القمر. أسرع، ساعي البريد سيغادر.

قل له:
لا تكن حزيناً،
لا يهم أنك ميت
إذ لا نزال متشابكين كما من قبل.

قل له إن الموسيقى كانت الليلة هنا.

نافذة على الكلمة ٨

وصل رجال الغابة، ولم يكن لدى الكاهن ما يقدمه لهم. وهكذا ذهب إلى الحديقة ليتحدث معها. تحدث مع النباتات بكلمات جاءت من الأرض الرطبة، مثلهم. وتلقت النباتات الكلمات ونضجت فجأة وحملت أزهاراً وثماراً. وهكذا استطاع الكاهن أن يعتني بضيوفه.

روى المتصوف القصة، وقال إن ابن الكاهن أراد أن يفعل ذلك أيضاً، لكن الحديقة لم تصغ إلى كلماته ولم تصدق النباتات كلامه رافضة أن تنمو.

لم يستطع ابن الكاهن أن يقول ذلك. ولكن الكاهن؟ هل يستطيع الكاهن أن يكرر عمله الفذ؟ لا يقول المتصوف. ما الذي سيحدث للكاهن إذا لم تستجب له شجرة البرتقال، شتلة البندورة، أو شجرة الياسمين؟

هل تعرف الكلمة أن تصمت حين تمر اللحظة التي تحتاجها أو ينتقل المكان الذي يرغب بها؟ واللسان، هل يعرف كيف يموت؟

قصة يوم واحد في المقهى

خلف طاولة المحاسب، يقلب برودنثيو في الجريدة. دون أن يزحزح عينيه عنها، يصل إلى صف الزجاجات ويفتح واحدة.

يقول: «لا يحدث أي شيء هنا مطلقاً.» يترك الصحيفة، يقدم لي كأس نبيذ، ويبدأ بطي المناديل الورقية.

أجلس إلى طاولتي. من هنا، من الخلفية، أستطيع أن أشاهد الباب المتأرجح. وهذا اليوم ليس يوم نشاط كثير، لكن بعض البشر يتجهون إلى الباب، يبلون ريقهم ويخرجون إلى الصيف. وبين دخول الزبائن وخروجهم يطحن برودنثيو القهوة، يمرر ماسحة غبار على غاليري أبطال كرة القدم والتانغو، أو يتوقف ليربت بعطف على الصور الشعاعية لمعدته. في إطار ذهبي في مركز مجموعة الصور، تتدلى الصورة الشعاعية: في الداخل، في بطن برودنثيو، كشمس متألقة في مشهد ضبابي، تستلقي طلقة مشعة.

حين يأتي ليملأ كأسي الفارغة، يبدأ برودنثيو بالحكاية، ويروي مرة أخرى، قصة الطلقة. في طبعة اليوم الأولى، هو يركب عبر الممر، يصفر، ينكبُّ على عمله الخاص، حين يخطئ رجل عازم على الانتقام ويظنه شقيقه التوأم، أقسى زعيم عصابة في المنطقة فتدوي الطلقات من بين الصخور. سقط الحصان على بطنه. يحاول برودنثيو أن يتسلق إلى أعلى الصخرة لكنه ينزلق. تطيِّر الطلقة الأولى قبعته. وينهمر مطر من الرصاص.

أنقذني باتيبابو. كان بودنثيو في ذروة مأساته حين أتي باتيبابو معتمراً قبعة فوق لباس المهرج، يلوِّح عصاه الملونة بيد، حاملاً رسناً بالأخرى. الرسن لا يقود كلباً بل أسداً.

تدحرج برودنثيو نحو أسفل الوادي مغطى بالدم، ولم يكن أمامه خيار سوى أن يقاطع ألمه. فاتحاً عينيه البوميتين الكبيرتين وماطاً فمه العريض كفم البجعة، أعلن: «لا يسمح بدخول الحيوانات.»

وليس بوسعك كذلك أن تترك الأسد على الباب، لأنه سيخيف الزبائن.

يترك باتيبابو الوحش مربوطاً إلى شجرة ويحتل الطاولة التي قرب النافذة. يحضر له برودنثيو كأساً وبينما يربت على الزجاجة بملعقة ليخض البيرة يمدح المهزوم: الطائر في قفصه، الحصان في لجامه، الخراف في مطعم الشواء، الفروج في المقلاة، والأسد الذي على سجادة غرفة الجلوس.

باتيبابو لا يخصه حتى بنظرة.

باتيبابو، الفنان الذي يتمتع بشهرة كبيرة، يعرف كيف يكون قذيفة مدفع بشرية، فنان أرجوحة دون شبكة، ومهرج يحيي الحشد بقطع رأسه، قبعته وكل شيء. أغلقَ السيرك العالمي الكبير وفي أثناء توزيع الحصص حصل باتيبابو على الأسد. وفي هذا الصباح عرضه على حديقة الحيوانات في المدينة. فحصه الأطباء البيطريون، ورفضوه: للأسد فتقٌ.

أصغي إلى باتيبابو يروي مصيبته بينما أعجب، من النافذة، بالملكية الهادئة للوحش الذي يستلقي في ظل الشجرة. وعلى عنقه تتدلى لافتة:

«للبيع.»

ينظر الأسد إليَّ ويتثاءب، مظهراً أسنانه كلها، وأذكر البرغوث بامبالينا، الذي كان لاعب سيرك وعاش في علبة ثقاب. بامبالينا، فنان سيرك صغير. صديقي دودو، مدرب الحشرات، يحضره إلى المقهى. يتركه يعضه ثلاث مرات في اليوم: الفطور، الغداء، العشاء.

لم يسمع باتيبابو بذلك البرغوث مطلقاً. يحك ظهره بعصاه ليكون مهذباً، لكنه لا يشيح عينيه عن الأسد المعروض للبيع. وكان واضحاً أنه لا يستطيع أن يقلل من اهتمامه بالموضوع.

كم مضى على عدم مجيء دودو إلى المقهى؟ لم يسمع أحد عنه منذ ذلك الوقت.

إلى طاولة عند النافذة الأخرى، تلك التي تطل على محطة القطار، تحتسي السيدة بوكا قهوتها الحلوة بينما تحدث المبارزة تحت الشمس في البلدة التي اعتاد أن يعيش فيها برودنثيو.

لا أقدر أن أسمع جيداً بسبب الزئير حول الطاولات التي في الوسط، بيد أنني أعرف القصة. يخوض برودنثيو مبارزة بسبب شرف سيدته الذي انتهك. يطلق العدو النار في البداية. الرصاصة تصيبه. ثم يخفض برودنثيو مسدسه، يطلق على الأرض، ويقول بنبل: «أسامحك.» ولكن خصمه، الوغد، يمتلك رصاصة أخرى في مسدسه.

«ثم أخرى»، قال برودنثيو، وبين الإبهام والسبابة يرفع الرصاصة من حزامه. رفع برودنثيو قميصه ليظهر الندبة على بطنه. تهز السيدة بوكا رأسها، وتفتح فمها.

ثم، وبينما يذهب برودنثيو حاملاً الصينية بيده، ليقوم بواجبات أخرى، تعود السيدة بوكا إلى واجباتها. تراقب الجانب الآخر من الجادة. تمضي أيامها جالسة إلى تلك الطاولة، دائماً تضع نظارتها، وتثبت عينيها على الشبك الحديدي لبوابة المحطة الرئيسية.

كانت المحطة مغلقة طيلة أيام، لا يصل قطار، ولا يغادر قطار. لكن السيدة بوكا تنتظر.

«ثم ما الأمر؟»

«أنا أنتظر.»

«ما الذي تنتظرينه يا سيدة بوكا؟»

تهز كتفيها.

تنتظر ويداها مطويتان. ربما تنتظر الأطفال الراحلين، الذين هم في طرف من العالم بعيد لا يعرفه أحد، أو على الأرجح هي تنتظر فحسب إلى أن تنتهي حياتها على الأرض.

وصل السيد ترانسيتو. مرتدياً الأسمال، هزيلاً، يجر قدميه، ينتقل من طاولة إلى أخرى ليقوم بالمراهنات.

يغني باتيبابو أرقامه، وهنا وهناك يقوم أشخاص لا أعرفهم بمراهناتهم. من طاولتي أستطيع أن أسمع السيدة بوكا تجادل، تتحدث عن مشكلاتها. وحين يأتي دوري، يشكو السيد ترانسيتو. يقول لي إنه قال لها: الأحلام لا تكذب، يا سيدة بوكا، وهذا صحيح، حقيقة مبرهنة، لكن هذا ليس خطأي، وليس خطأ الحلم كذلك. راهنت السيدة بوكا على رقم ٦٦ لكن الرابح كان صاحب رقم ٨٨. دافع دون ترانسيتو عن نفسه، قائلاً إنها حلمت جيداً، لكنها ترى بشكل سيئ، وهذا ما تحصل عليه جراء نومها دون نظارتها.

راهنت أيضاً. على ٧٧، امرأة مجنونة، وعلى ٢٠، مهرجان. الأحلام التي تطاردني، الأرقام التي أتبعها. في أحد الأيام ستنقذني من البؤس، أقول، ينبغي أن يكون هوسي بالحلم والانتظار جيداً لأمر ما.

رجل سمين يرتدي بزة ويحمل مسدساً في حزامه يدخل إلى المقهى. يشحب السيد ترانسيتو، لكن ذراع القانون تشير إلى باتيبابو: «في الخارج أسدٌ يزأر مخالفاً القانون.»

ينهض باتيبابو. ناظراً إلى الساعة التي على الحائط، يوافق: «لقد جئت في الوقت المناسب أيها الضابط.»

ويتوسل: «ساعدني في التخلص من الحيوان الصغير.»
يخرج الاثنان.
يهزّ زئير المقهى.
أنظر من النافذة: الأسد يلعق فكيه.

يعود باتيبابو وحيداً. يجلس ويظهر على وجهه تعبير كأنه يقول: هذه هي الحياة. ثمة عدد كبير من قوى النظام، لا أحد سيلاحظ غياب ذلك الشخص.

وهكذا، بدون أي شيء جدير بالانتباه، من تفاهة إلى أخرى، يمر الزمن. الضوء الوحيد، مصباح هزيل، يدفع، بتردد، الظلال الغازية، بينما في الخارج كانت الشمس تغرب والقمر يطلع. تتلاشى الأصوات ولم أعد أعرف ما الذي قاله الذين تحدثوا، هذا إن كانوا قد قالوا أي شيء.

يهيمن صوت برودنثيو الأوبرالي. يروي لأحد زبائنه الأخيرين، عن مشاركته في الألعاب الأولمبية. تأتي الطلقة من زاوية خفية للمدرج، حين كان على وشك أن يُتوَّج بطلاً للعالم في سباق الألف متر. يسقط، قبل خط النهاية، مستحماً بالدم.

ينهض برودنثيو ليتجه إلى درج النقود. باتيبابو، المتعب من انتظار الشراة، يدفع حسابه ويغيب في الغسق، ويقود أسده من رسنه. السيدة بوكا، المتعبة كذلك من انتظار أولادها أو من تنتظره، حين تذهب تقول: «هذا يؤذي». لكنها لا تقول ما هو.

ولا يأتي أحد. فقط طفلٌ بائس، يدق على الباب ويطلب شيئاً ليأخذه إلى المنزل من أجل العشاء، يقول إن بطنه مثل جهاز إرسال مشغول وليس لديه حتى قليل من حساء الدجاج ليوقف الضجة.

أنا الأخير. أبقى. أعرف أنه عرضٌ بلا فائدة، لكنني أبقى. أستطيع أن أرى أن اليوم لن يحضر المرأة التي تركتني دون نار أو رغبة، ولن يحضر

الغد شاماناً أو طبيب أسنان يستطيع أن ينتزعها مني بحركة واحدة وبدون مخدّر.

أنهض. أدوخ. أجلس، أقف مرة أخرى.

أفرغ جيوبي وأنجح في استنتاج أنني لا أزال أقدر أن أدفع من أجل زجاجة أخرى من الخمر وعلبة أخرى من التبغ.

متكئاً بكوعيه على الطاولة، يجمع برودنثيو غلّة اليوم. بقلم رصاص خلف أذنه، يقول: «لا تستطيع أن تربح أي شيء هنا.»

يرفع برودنثيو حاجبيه، يخصّني بنظرةٍ تهديدية. واضح أنه يريد أن يغدق علي قصة أحد أعماله الفذة، لينهي الليل بجعل ثلوج سيبيريا أو رمال الصحراء حمراء. لكنني أدير ظهري وأصمت.

أدخن. أشرب. أقدم الشكر للصمت الذي يصدح في المقهى المهجور.

يخيم الليل على النوافذ.

وبين الطاولات الفارغة ترقص ظلال سحرية.

نافذة على الذاكرة 3

هذا الذي يسمّي، ينادي. فيأتي شخصٌ ما، دون موعــدٍ، دون شـروح، إلى المكان الذي يناديه فيه اسمه الذي يقال أو يُفكر به.

حـين يحـدث هـذا، لا أحـد يغــادر بشــكل كــامل طالمــا أن الكلمــة المستدعية، القادرة، التي تحضره، لا تموت.

قصة الصياد

رجل يجلس وحيداً في المقهى. إلى جانبه، كرسي فارغ. علـى الطاولـة، كأسان من النبيذ. يشرب الرجل من واحد، ويقرع نخب الآخر.

فيما بعد، بوابة الأمن المعدنية تنخفض ويغادر الرجل حاملاً زجاجة في يده ويختفي وسط السيارات المندفعة، متمتماً ما لا يعرفه أحد.

في النهاية ينهار على حائط ويشخر، مستخدماً زجاجته كمخدة.

قطة تنام تحت محرك سيارة لا يزال دافئاً، تحلم بمدرسـة مـن السـمك أو حريم أنغوراس.

وشخص ما يدعى إل غاتو ينام في مدخل، يحلم أن كـرة ضخمـة تطـير إلى زاوية شبكته التي لا تقهر، والحشد مسبقاً يصـرخ: هـدف!!!.. حـين تصد أصابعه القذيفـة البيضـاء بشـكل إعجـازي، والـتي تضيـع في الغيـوم. يتقلب إل غاتو على فرشة مـن الجرائـد القديمـة، الحـارس الـذي لا يهـزم للأقطاب الثلاثة يتابع الطيران، مسافراً نحـو المجـد، نحـو كـأس العـالم، لكنه يعلق في محطات الزمن ويصل بعد تأخير يستغرق قروناً. على بوابـات الملعب يصدّه تمثال ببزة خادم وشعر مستعار.

يستيقظ مع الضوء الأول.

يخيف إل غاتو القطة، يلف كوعه بخرقة، ويكسر نافذة السيارة. ليـس هناك مذياع مخبأ تحت المقعد. ثم ينحني فوق السكران المستند إلى الحـائط ويفتش جيبيه الفارغين.

بعد عدة فراسخ، ينصب فخاً: يربط سلكاً حول قاعدة شجرة ويشده بإحكام عبر الرصيف إلى عمود، على ارتفاع عرض يد من الأرض.

يجلس منتظراً. السيدة بوكا، عجوز ترتدي نظارة، لا تحمل محفظة، تصطدم وتسقط. تتحطم نظارتها على الرصيف.

طريدة حقيرة. يهز إل غاتو كتفيه ويغادر. بغضب، يرفس علبة كوكاكولا. اليوم الذي يبدأ سيئاً يصبح أسوأ.

يمضي الوقت متجولاً، باحثاً عن شخص شارد الذهن. وفي الغسق يحاصره رجال الشرطة. كانوا على وشك أن يقبضوا عليه. يهرب متسلقاً جدراناً مستحيلة، منزلقاً من ظل إلى آخر.

فيما بعد، يتكوّر في مخبأ.

رأس دمية يدور ويطن، رأس يومض ليزيل أحزانك. يثبت إل غاتو نظرته على ذلك الرأس الصغير الدائر وينسى للحظة بطنه الجائع وعظامه المرتجفة.

يقضم بسكويتة مبللة كأنها مصنوعة من العلك. يشمه كلب ويقترب، يطرده إل غاتو. في أوقات أخرى، امتلك إل غاتو كلباً. لكنه لم يعد يملكه. قتل ذلك الصديق برصاصة كانت تستهدف إل غاتو، ومذاك قطع علاقته مع الكلاب الضالة، التي تأتي، وتطلب، مثله، الدفء والطعام.

الوحدة لا تؤذي. اعتاد عليها إل غاتو. الشعور بالوحدة شيء آخر. يتنشق الغراء، ينادي إل غاتو القديس جورج. القديس جورج فظ، حاد المزاج، محب للنساء، مسبب للمشاكل. قديس مكفهرّ، حتى الله لا يستطيع أن يقول له ماذا يفعل. يعيش هناك في الأعلى، مثل الغيوم، ويأتي حين يشاء. ينزل كالمطر. المطر يطرده، يبلل رمحه.

الليلة لن يأتي. وهذا مؤكد.

ولكن، في الليلة التالية، وفي وقت متأخر جداً، يستيقظ إل غاتو، على صوت دراجة نارية تقترب من بعيد، من الأعلى حيث تستدير الريح. ويرى دخاناً أحمر يعبر السماء. إن عدو تنين سوء الحظ قادم. يظهر القديس جورج في خوذة وريش حربي، يحمل رمحاً بيده، راكباً على دراجة ياماها: يقفز إل غاتو ويتعلق كي يركب، ضاماً الدرع الحديدي للقديس المحارب.

تأخذه الدراجة النارية المجنحة إلى الصيد. يفتح رمح القديس جورج الطريق ويعبران المدينة ويجتازان الليل، مسافرين عكس الريح، في الطريق إلى قدرهما.

كان الوقت فجراً تقريباً حين هبطا في ساحة غير مألوفة. يبقى إل غاتو، بينما يرحل القديس.

الساحة، التي هي دائرة واسعة من الداخل، تنهض فوق الأضواء المتألقة للمدينة التي تستيقظ في الأسفل. يتجول إل غاتو بلا هدف حول دائرة الأعمدة. على قمة تلك الهضبة المهجورة، جميع الأضواء مطفأة وجميع الأبواب مغلقة، طيلة سنوات أو قرون. بعد مسير قصير، يكتشف إل غاتو أن هناك أحداً ما.

يتجسس عليه من الخلف: هيكل آدمي يجلس على مقعد.

يقترب إل غاتو، ينحني، وفي يده قضيب حديدي. ولكن قبل أن يوجّه الضربة، يميل الهيكل إلى جانب ويسقط.

يخيف الموت إل غاتو، لكن لا يخيفه الموتى. الموت ليس في الميتين. إنه يعضُّ، يأكل، ويرحل.

ينظر إليه عن كثب، يربت عليه: سيد متجمد بشارب مقصوص جيداً، يستلقي على دمه، وقبضة مدية تخرج من صدره. وكانت عينا الرجل المتجمد، الكبيرتان كبيضة، تسألان عن السبب.

حتى الآن، كان إل غاتو قد رأى نوع الموتى الذين يغادرون العالم دون عصا ليدافعوا بها عن أنفسهم، أو منديل يعزون به أنفسهم، أو قطعة نقد يدفعونها من أجل ذنوبهم. لكن هذا الجسد هدية عيد ميلاد. يرتدي خاتماً ألماسياً وساعة ذهبية، وفي جيبه حقيبة سميكة من جلد التمساح.

ما الذي سيفعله بهذه الأشياء الكثيرة؟

سوف يحطم الليل ويفتحه، ويشتري مشروبات للمدينة كلها.

سيشتري لنفسه شاطئاً.

سيستأجر الملعب في أحد أيام الأحد وأفضل اللاعبين في العالم سوف يلعبون له في الملعب الفارغ، له وحده، جالساً على كرسي وسط المقصورة الرئاسية ويدخن السيجار.

سيدخل إلى أغلى مطعم، أرضيته من المرايا، سقفه من الكريستال، ويطلب جميع الأطباق التي على القائمة.

على الشرفة، المفتوحة لأشعة الشمس، يتعرق رئيس البلدية. في الأسفل، اضطراب وزئير بحر من الأطفال يرتدون الأسمال، زبدُ أيدٍ مرفوعة إلى السماء: ورئيس البلدية الذي يلبس مثل سانتا كلوز يرمي الدمى من الأعلى.

تمطر الدمى على الحشد الهائج، للأطفال الفقراء الحق في السعادة كذلك. يندفع الفتيان المحظوظون ويتشاجرون، يرمون اللكمات والشتائم، ويدوسون على بعضهم البعض. دمية بالحجم الطبيعي تصرع عدة فتيان، صاروخ فضائي يضرب آخر بين عينيه تماماً، والحلويات تسقط كالصخور.

يراقب إل غاتو من بعيد. لديه قمة وسر.

عند أضواء المرور، يبيع أطفال سريعو الكلام السجائر المهربة وعلباً صغيرة من الأوكسجين، تماماً الشيء المناسب لمحفظة السيدة أو لجيب السيد.

يحيي إل غاتو اثنين من معارفه ويسير، بقدر ما يستطيع من البرود.
«كيف حالك؟»

«تمام.»

يعرف إل غاتو، أنه إذا أفشى السرّ سيموت.

لكنه لا يستطيع أن يقاوم. إن واجهة حانوت سحرية أقوى منه، يدخل إل غاتو ليشتري جهاز تلفزيون ملون وكبير، كبير كشاشة السينما.

تعلن الإذاعات، والتلفزيون، والصحف: «بعد تحقيق حساس، قبضت الشرطة على قاتل رجل الأعمال الذي وجد ميتاً عند بوابات ساحة الصمت. شخص ثانوي، ارتكب عدداً من الجنح، دون عنوان ثابت أو...»

ليس له اسم أو عمرٌ. حاول أن تحذر في أي يوم ظهر في تلك الثغرة الطينية. يقول إنه ولد في ٢٩ شباط، لأنه لا يحب أعياد الميلاد.

برقم على صدره، يواجه إل غاتو عين الكاميرا السوداء. يومض الفلاش، وتصدر الكاميرا صوتاً.

نافذة على المدينة ١

تحت أقواس الساحة، ابتلع درويشٌ عدداً من الملاعق وهو الآن يبتلع خرطوم مياه الحديقة بينما تعزف نساؤه على الفلوتات ويقرعن على الدفوف، وبعض الأشخاص يرمون عليه قطعاً نقدية.

منبطحاً في زاوية، شخص ما يحرك أصابعه في الجو. الأصابع ترقص، وكأنها تعزف على البوق. ومن الأداة اللامرئية يندفع لحنٌ حزين.

امرأة عجوز ترتدي الأسمال تنادي على جرعتها المضادة للبؤس، أفضل هدية لعيد الميلاد، فقط مائة، مائة للزجاجة، الذي يشتري يشفى ومن لا يشتري يصاب باليأس. لا أحد يصغي إليها. ألف، فقط ألف، يعلن نبي عن عودة المخلّص الوشيكة، فيما يصيح الحشد: يسوع !!.

إلى جانب النبي يزأر أسدٌ. كلما شدوا ذيله، يزأر.ألف، فقط ألف، يعرض النبي، هيا أيها الناس، المختارون سيشاهدونه، سيسمعونه، ألف، هيّا: «دورة صاخبة من التصفيق، إنه قادم الآن! إنه في طريقه إلى الأسفل! أوشك على الوصول!»

«يسوع، يسوع!» تصرخ الساحة، ويرافق زئير الأسد تصفيق بشر يمدون رؤوسهم نحو السماء.

السماء، التي حجبها دخان المحركات، لا تستطيع أن ترى الحشد الذي ينظر إليها.

قصة الزيارة الثانية ليسوع المسيح

ونزلَ. وصل متدلياً من مظلة مفتوحة. تركه نسيمٌ مفـاجئ عائمـاً لبرهـة طويلة فوق الحشد. وهو يمسك المظلة بيديه الاثنتـين، لا يسـتطيع ابـن الله أن يمنع النسيم من رفع عباءته وكشف عريه البشري.

وبسبب النسيم، هبط في نبع. شاهده الورعون، الذين أذهلتهم المعجـزة، يخرج من المياه بين الملائكة الرخاميين.

هز يسوع نفسه ككلبٍ مبلّل.

صفّقَ باتيبابو، الذي يرتدي ثياب نـبي. شـدة في الذيـل فـيزأر الأسـد. ولكن البشر الذين يراقبون المشهد بلا حراك وصامتون.

في الساحة، ملاذ الأشباح، يريد الفقراء أن يصبحوا أغنياء

ويريد الأغنياء أن يصبحوا قلة،

والبيض يريدون أن يعيشوا إلى الأبد،

الأطفال يريدون أن يصبحوا راشدين،

الراشدون يريدون أن يصبحوا أطفالاً،

العزّاب يريدون أن يتزوّجوا،

والمتزوّجون يريدون أن يترمّلوا.

يصيح يسوع: «أيها السكان المسوسون! قلت البارحة ما سأقوله اليوم! أنتم مجانين»!

نظر الجميع، جاحظي الأعين من الدهشة، إلى قماشة الصحون المبللة، الذي يلوِّح بذراعيه الضخمتين كطواحين الهواء ويطرطشهم بالماء ويسأل أسئلة غريبة: «انظروا إلى السماء. هل ستمنحكم الفردوس أم ستمنحكم عنقاً متصلِّبة؟ أين المملكة، إن لم تكن في المنفي الذي يبحث عنها؟»

صفّق باتيبابو، تصفيقاً وحيداً غير مبال، وجعل الأسد يزأر. استدار ابن الله إلى الحيوان المفترس، فمه لا يزال مفتوحاً، يشير إليه ويتحدث إلى الجميع كأنهم واحد: «إذا هاجمكم الوحش، ما الذي ستفعلونه؟ هل ستصلّون؟ هل ستسلمون أنفسكم لمشيئة الله؟ أم هل ستتسلقون شجرة؟ إن أبي لن يحب أن تستخدموه كعذرٍ للجبن والغباء.»

ينظر الأسد إليه، يدرسه. بين الحشد، تطير إشاعات الأعداء.

تتمتم آنسة وهي تنظر نظرة قذرة إلى يسوع الذي يرتدي أسمالاً وبطنه منتفخ من البيرة: «إنه ليس هو. شاهدت يسوع على شاشة التلفزيون وبدا تماماً مثل بيرت لانكستر.»

«المنفى هو في داخلكم، والمملكة كذلك!» ألح رسول الإله، لكن التمتمات ازدادت وسمعت الصرخات الأولى: «دعوه ينزف، دعوه يبرهن أنه الله! دعوه ينزف من خاصرته.»

تابع يسوع هادئاً: «إن العين التي لا يمكن أن تشاهَد هي العين التي ترى.»

«لا أرى أي شيء،» تمتمت السيدة بوكا التي وقعت في شرك الحشد وهي تسير متجهة إلى برج مراقبتها في المقهى.

مسحوقين من الحشد، يفتح الباعة الجوالون طريقهم بأكواعهم وينادون على بضائعهم – فول سوداني، فول سوداني، فووووول سوداني، فطائر ساخنة وطازجة، بوظة – وبينما تحول انعدام الثقة إلى غضب ضد المخلِّص المتلئ الجسم، الذي لا يرتدي من المجوهرات إلا خرقة على رأسه الصلعاء والذي لا يمنح شظايا من صليبه، أو شوكاً من التاج، أو أي شيء على الإطلاق. علتْ صرخات: «لينزف، لينزف.»

«الدجال.»

«أعد لنا نقودنا.»

ولكن فجأة يحتد جدلٌ وسط الحشد، حارفاً للحظة اتجاه الغضب: أكد البعض أن الإيطاليين قتلوا يسوع الحقيقي، وأكد آخرون أن الذين قتلوه هم اليهود. أقسم البعض أنه انبعث في سبت النور (الذي يسبق الفصح) وقال آخرون أن هذا حدث صباح الأحد في العاشرة.

استغل يسوع الهدنة القصيرة وهرب من غضبهم. وقف، طويلاً ومنتصباً، على الصخور، مواجهاً البحر الذي بلله برذاذه. على كتفه ينام نورسٌ. اقتربت من الخلف فلم يتحرك هو أو النورس.

ثم جلس على صخرة ووضع رأسه بين ركبتيه. أعتقد أنه يشكو: «إنهم يكرهونني لأنهم يعتقدون أنهم مدينون لي بأعمال الخير.»

جلست إلى جانبه. رفع رأسه وواجه الريح.

قال دون أن ينظر إليَّ: «لا نتعلم مطلقاً من التجربة. منعني أبي من العودة.»

حكّ لحيته الخشنة: «إنه لا يحبهم، لأنهم تقريباً طيبون. والشيطان كذلك لا يحبهم لأنهم تقريباً سيئون.»

كان يسوع يشبه كثيراً صديقي المختفي، مدرب البرغوث، حتى أنني تقريباً قلت: دودو.

وأعتقد أن بلادي هي منديل، منديل مطوي. لكنه ينظر إليَّ، وتعكس عيناه مشهداً ليس من هذا العالم، شرارة مكان غير محدود حتى الشمس لا تعرفه.

قال: «حالاً سأصبح في الثالثة والثلاثين.»

طار النورس النائم وضاع في السماء.

قال: «سيصغون إليَّ بعد أن أموت. هكذا هي الأمور على الأرض.»

التقط حفنة من الرمل وجعلها تسقط شيئاً فشيئاً.

عدنا إلى الساحة. بقي بعض البشر، وكل منهم منشغل بمجيئه وذهابه، ولكن لا أحد خصنا بأدنى اهتمام. تنهد يسوع قرب النبع: «يريدونني أن أقفز دون مظلة. فطيرة محلاّة من الله.»

وابتسم بحزن للصورة. وقفنا سوية تحت نخلة. نزع المصور، المغطى بغطاء صندوق كاميرته، الغطاء بخيط قصير. ثم قام ببعض العمليات الغامضة في الظلمة، سحب النيغاتيف، جففه، ووضع رأسه تحت الغطاء مرة أخرى.

حين خرجت الصورة من سطل الماء ووصلت، أخيراً، إلى يديَّ، اكتشفت أنني وحيد. لم يظهر أحدٌ إلى جانبي في الصورة. لا أحد سوى شجرة النخيل.

نافذة على العقارب

كان عيد الميلاد، فمنح رجل سويسري ساعة سويسرية لابنته السويسرية.

فككت الطفلة الساعة في فراشها. كانت تلعب بالعقارب، بالنابض، والكريستال، والمفتاح، حين اكتشف والدها ذلك وضربها بعنف.

حتى الآن، لا تزال نيكول روان وشقيقها عدوين. منذ عيد الميلاد ذاك فصاعداً – عيد الميلاد الأول الذي تتذكره – كان الاثنين صديقين طول الحياة. في ذلك اليوم، علمت نيكول أنها هي أيضاً ستُعاقب في جميع السنوات القادمة، لأنه بدلاً من أن تسأل ساعات العالم ما هو الوقت، ستسألها كيف تبدو في الداخل.

قصة يوم آخر في المقهى

يدخل باتيبابو دون عصاه.

يدخن بمشرب سجائر، يشرب كونياكاً فرنسياً. لم يعد يلبس ثياب مهرِّجٍ أو نبي. لوهلة الآن كان يلبس بزة بيضاء تخلو من العيوب، حذاء يتناسب معها، وربطة عنق بمشبك ذهبي.

الأسد مشغولٌ، بعيداً عن هنا. لم يعد يعرضه باتيبابو للبيع: الآن يؤجره. خطرتْ له الفكرة حين جاء مجرم قذر ومنحط لكي يستأجر الأسد وذلك لكي يعذِّب فتاة غير مخلصة. مذاك، بدأ باتيبابو يحل مشكلات محلية لزواج في أزمة أو لأسر أكبر من المعتاد.

خيسوس أو دودو، أو مهما كان اسمه، لم يسمع عنه مطلقاً، ولم أجرؤ على السؤال عنه. أعتقد أنه في أحد أماكن الاستراحة. والحقيقة أن نصيحة أو نصيحتين لن تسببان لي الأذى، لكن لم يكن هناك وقت.

هذا ما حصلت عليه لكوني هادئاً. وإذا كانت الكلمات تسبِّبُ لي السمنة، سأكون كبيراً جداً على هذا العالم، بسبب جميع الكلمات التي ابتلعتها. فأنا أعمل كيفما اتفق، في كل ما يظهر أمامي، دائماً بفمٍ مغلق، وأمضي بقية وقتي بالطريقة نفسها، هنا في المقهى، أياماً بلا فكاهة، وهكذا أحيا. آثار خطى على الماء.

اليوم يقول لي برودنثيو أنه كان مرة مهرب ألماس. وكان يعبر الغابة حين عثر على أجمل امرأة في العالم، عارية في النهر، ولأنه رآها حكم عليه

القدر. أب الجمال، قزم بثلاث أرجل، جسم زحّاف، وذيل من الأسلاك، يطلق عليه النار في بطنه.
اعتقد أنني بدأت أصدّقه.

المطر يغطي نوافذ المقهى.
في ذلك الأصيل كان في الجو شيءٍ ما نادرٌ. دخان ليس من السجائر فحسب، يعوم في الجو ويضفي لوناً أصفر على الجو المظلم وعلى جلد السيدة بوكا القديم الذي كالبرشمان.
جالساً إلى الطاولة التالية، أتقاسمِ معها نافذتها. اليوم أراها من قريب. تلبس، كما لم تفعل من قبل، حريراً أسود وشريطة بالية ملتقطة من أعماق صندوق ثياب قديم تتخللها رائحة عطر من عساليج بنفسج في عروتها. عبر نظارات جديدة، تتأمل السيدة بوكا المطر يضرب بوابات المحطة الساكنة.

لا تأتي الآنسة من المحطة: لا تدخل كما تظهر، كانبعاث من الدخان أو المطر.
تجلس إلى طاولة السيدة بوكا، تستند إلى الأمام، تعصر يدي المرأة العجوز. لها شعر بلون الرماد وهي مثل السيدة بوكا صغيرة ونحيلة. أسمعها تهمس، أو أظن أنني أسمع: «أنا هنا.»
السيدة بوكا، محتارة، تسحب يديها بعيداً وتسأل: «هل استقلت كذلك.»
الوافدة الجديدة تحرك رأسها قليلاً، تتمتم: «مرّت سنوات لكنني هنا.»
تمتمت الدونا بوكا: «نحن النساء المستقيلات نتلقى معاملة سيئة.»
تتحدث المرأة، صوتها كخيط وتقول: «الآن لست وحيدة.»
والسيدة بوكا: «ألديك أطفال؟ لدي ابنة، بقيت واحدة. تعيش بعيداً عن هنا.»
ومشيرة إلى المحطة، وكأنها تذيع سراً، تقول: «ستأتي، اليوم أو غداً.»
تدير تلك المرأة رأسها وألتقي بتحديقتها. تخفض عينيها.

نافذة على المدينة ٢

أنا وحيدٌ في مدينة أجنبية، لا أعرف أحداً، ولا أفهم اللغة. ولكن فجأة يشع أحد ما وسط الحشد، يتألق فجأة ككلمة ضائعة على الصفحة أو رقعة عشب على جلد الأرض.

قصة الآخر

تعدين الفطور كما تفعلين كل يوم.

وكما في كل يوم، تأخذين ولدك إلى المدرسة.

كما في كل يوم.

ثم، تشاهدينه. تشاهدينه في الزاوية، منعكساً في البركة التي على الرصيف. وتقريباً تكاد تدهسك شاحنة. ثم، تذهبين إلى العمل، وتشاهدينه مرة أخرى، في نافذة حانة، بين الحشد الذي يلتهمه القطار الكهربائي النفقي ويتقيأه ليعيده إلى الشوارع.

عند الغروب، يوصلك زوجك. وفي الطريق إلى المنزل، فقط أنتما الاثنان، تتنشقّان سم الجو، تشاهدينه مرة أخرى في زوبعة الشوارع: ذلك الجسم، ذلك الوجه الذي بلا كلمات، الذي يسأل وينادي.

ومن تلك اللحظة فصاعداً تشاهدينه بعينين مفتوحتين، ولا يهم أين تنظرين، وتشاهدينه وعيناك مغمضتان، لايهم ما تفكرين به. وبعينيك تلمسينه.

يجيء الرجل من مكان ليس هذا المكان ومن زمان ليس هذا الزمان. أنتِ، أم كذا، زوجة كذا، الوحيدة التي تشاهده، الوحيدة التي تستطيع ذلك. لم تعودي تشعرين بالجوع من أجل أي شخص، ولكن كلما ظهر وتلاشى، تشعرين بحاجة لا تقاوم للضحك والبكاء، الضحك والبكاء اللذين كنت تبتلعينهما طيلة حياتك، ضحكات خطيرة، شهقات ممنوعة، أسرار مخبوءة في زاوية من أعماقك لا يعرفها أحد.

وحين يخيّم الليل، وبينما ينام زوجك، تديرين له ظهرك وتحلمين أنك مستيقظة.

نافذة على قفا العنق

الأشياء هي مالكة مالكي الأشياء ولا أستطيع أن أجد وجهـــي في المرآة. أتكلم ما لا أقوله. أنا موجود لكنني لست موجوداً. وأستقل قطاراً إلى حيـث لست ذاهباً، في بلاد منفيّةٍ منّي.

نافذة على الوجه

آلة غبيّة؟

رسالة بلا عنوان مرسلة إلى الجهة الخطأ؟

رصاصة ضالة، أطلقها أحد الآلهة بالخطأ؟

نأتي من بيضة أصغر من رأس الدبوس، ونعيش على صخرة تدور حول نجم قزم ستصطدم في أحد الأيام.

لكننا مصنوعون من الضوء، مثل الكربون والأوكسجين والبراز والموت وأشياء أخرى كثيرة. وفي النهاية، وجدنا هنا منذ أن احتاج جمال الكون إلى شخص لكي يراه.

قصة الفتاة التي
سافرت في النهر وفي الليل

كانت دائماً تسافر. لكنها تعود. اعتقدوا عدة مرات أنها غرقت. لكنها كانت تعود.

أرادت الأسرة أن تعلّمها، قالت لها: «تنفّسي يا غاروا. إن التنفس شيء يفيدك كثيراً.»

وحين كانت تُمنح الهواء والماء كانت تفضّل الماء. ولم يكن هناك طريقة لجعلها تغيّر عاداتها. في الغسق تغوص في نهر أوليمار، وفي أعماقه تولد وتتدفق. فتح القمر طريقاً في الليل المائي وكانت حصى النهر المصقولة نجوماً في سماء منعكسة: غاروا ستشاهدها تعبر، وسترى الأسماك تمر، وأذرع النباتات تلوِّح، وفي تلك الظلمة المضيئة لا أحد يستطيع العثور عليها ولم تدن بالطاعة لأحد.

عاشت غاروا في البلل. أما في الجفاف، رفضت أن تعيش. في الجفاف ترغب بالنوم الذي كان الشيء الوحيد الذي طلبته. مستلقية تحت الأغطية، حلمت أنها تعدو على ظهر سمكة أبي سيف تحوّلت إلى سمكة قرش تحوّلت إلى حوت كان جزيرة انفصلت عن العالم. وعلى الجزيرة أبحرت غاروا في أمواج السماء.

وحدث ذلك. ولكن ليس كذلك. جاءت النار بالحقيقة.

في الليالي الباردة، يتكور رجال يرتدون العباءات قرب النار. يجلسون في دوائر يحتسون المتة أو شراب قصب السكر، يدخنون ويروون الأكاذيب التي تقول الحقيقة. وهكذا جاؤوا من البرد ومن حماقة الحياة، وهكذا أمضوا الوقت الذي جمّعه النهار كي يأخذه الليل.

كانت غاروا موضوعاً قرب النار. مقت البعض الفتاة الفوضوية التي لا تربط شعرها ولا تطلب دمية. وآخرون كانوا فضوليين حيال حورية الماء، والبعض أعجب بأمازونية المياه.

قيل قرب النار إن غاروا تصطاد البطات من سيقانها. تصطادهن في البحيرة، من تحت الماء. غائصة دون أن ترفع رأسها، تقيد غاروا أرجل البطات بخيط طويل. حين تصطاد عدداً جيداً تقوم بنترة من الأسفل وتسبح باتجاه الشاطئ. وهناك تجهّز البطات للنتف. إلى أن حدث في أحد الأيام، كما قيل قرب النار، ارتعب ذكر بط وفرّ طائراً فتبعه السرب كله، وبعد أن طارت البطات علقت غاروا بالخيط.

وقيل قرب النار إن أمها شاهدتها تعبر، ضامة ذيل نيزك البطات الكبير ذاك الذي يتسلق عالياً نحو السماء. وراقبتها إلى أن ضاعت في السماء.

عبرت غاروا ذلك الطائر الذي غنى اسمه ولم تستطع أن تتعرّف عليه رغم زئير البطات الهاربات. وتابعت التسلق، وطارت فوق الأنهار المرسومة على خريطة المدرسة، ومن الأعلى هناك شاهدت ظهر النسر الأرجواني ووراء ذلك شاهدت أن للأرض لحماً أزرق وجلداً أخضر وشرايين زرقاء.

وغاروا، المتعلقة بالبطات، أوغلت في البعد. بدا كل شيء أكثر بعداً وصغراً إلى أن همدت أصوات العالم وكسي بالغيوم. أمسكت غاروا الخيط بكامل قوتها ودخلت صمتاً أبيض حيث كان كل ما سمعته خبط أجنحة البطات الطائرة، بينما الغيوم تسبح بصمت وهدوء.

عبر سهم البطات البحر القطني وعندئـذ انفتحـت السـماوات وصعـدت غاروا عـبر الألـوان، مـن الزرقـة السـماوية إلى البنفسـجي، ودخلـت الليـل وطارت عبر الليل نحو القمر.

مسافرة نحو القمر، عبرت غاروا النجم المتجول، ذلك الذي يبحث عـن الطريق الضائع إلى الأرض،

وشاهدت محارب الصحراء، يستخدم بندقيته كعكاز، متسلقاً،

ورأت الصاعقة التي انفجرت لتجيب عطش الذرة

وشـاهدت الكلـب الكبـير علـى عرشـه، محاطـاً بحاشـية مـن الجــراء المجنّحة،

وشاهدت قوس قزح يفتح الليالي

وشاهدت المرأة التي تطير بجناحي عقاب

ورأت مفاتيح مملكة السماء وهي تسقط

وشاهدت كبير الملائكة يتدلى على حبل

ورأت القديس جورج يركب دراجة نارية برمح جاهز،

ورأت يسوع يتدلى من مظلة مفتوحة.

لم تر شعب القمر اللامرئي يسافر نحو العالم على مزلقة، لكنها شاهدت القمر. القمر، الذي يرسل إلى العالم الجنون والموسيقى. القمر، الـذي يمسـخ الدلافين ويقود تجوال الأطفال في قيعان الأنهار.

نافذة على اليوتوبيا

إنها في الأفق، يقول فرناندو بيري. أقترب خطوتين فتبتعد خطوتين. أسير عشر خطوات فيركض الأفق عشر خطوات أمامي. مهما سرتُ، لن أصل إليها مطلقاً. ما نفع اليوتوبيا؟ إنها تنفع من أجل السير.

نافذة على الذاكرة ٤

تسافر أغنية الحيتان تحت البحر، منادية بعضها بعضاً. في الجو تسافر صفرة المتجوِّل، الذي يبحث عن سقف وامرأة لكي يقضي ليلته.

وعبر العالم وعبر الأعوام تسافر جدتي.

تسافر جدتي بسؤالها: «كم بقي من المسافة؟»

تنطلق من سقف منزلها وتعوم فوق التراب. تسافر سفينتها القديمة نحو الطفولة إلى ما قبل الولادة وإلى ما قبل ذلك: «متى سنصل؟»

جدتي راكويل عمياء، ولكن بينما هي تسافر تشاهد أزمنة متلاشية، تشاهد الحقول الضائعة. هناك حيث تبيض الدجاجات بيض نعام، والبندورة مثل اليقطين، والبرسيم له أربع أوراق.

جالسة على كرسيها، مهيئة جيداً، ومغسولة، ومبودرة قدر الإمكان، تسافر جدتي في رحلة العودة وتدعونا جميعاً قائلة: «لا تخافوا، فأنا لست بخائفة.»

وذلك المركب الصغير ينزلق عبر الأرض والزمن.

تطلب جدتي بينما تنطلق: «إلى أبعد...!؟»

نافذة على الذاكرة ٥

يسافر ضوء النجوم الميتة، وبضوء روعتها تبدو حيةً.

الغيتار، الذي لا ينسى رفيقه، يعزف الموسيقى دون يد.

يسافر الصوت، تاركاً الفم خلفه.



علي مولا

... في لغة الغواراني، تعني الكلمة: الكلمة والروح. ويقول هنود الغواراني إن كل من يكذب أو يبدد الكلمات يخون الروح.

* * *

الأم المضحية تمارس ديكتاتورية العبودية.

الصديق الموسوس يمارس ديكتاتورية أعمال المعروف.

الفضيلة تمارس ديكتاتورية الديون.

الأسواق الحرة تسمح لنا أن نقبل الأسعار المفروضة علينا.

حرية التعبير تسمح لنا أن نصغي لأولئك الذين يتحدثون باسمنا.

الانتخابات الحرة تسمح لنا أن نختار المرق الذي نؤكل به.

* * *

... هل نمتلك ماضياً رائعاً أمامنا؟

بالنسبة للبحارة الذين يحبون الريح، الذاكرة ميناء انطلاق.

* * *

تقول الكنيسة: الجسد خطيئة.

يقول العلم: الجسد آلة.

تقول الإعلانات: الجسد مشروع تجاري.

يقول الجسد: أنا مهرجان.

من نوافذ «كلمات متجولة»

كلمات متجولة

دار الطليعة الجديدة

دمشق. ص.ب: 34494 تلفاكس: 2311378